الدكتور
شفيق عبد الرازق أبو سعدة

الأَدَبُ العَـرَبِىُ
بين التماسك والانحدار

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

دار الطباعة المحمدية
٥٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

«رب أنْعمتَ فزِد»

أحمدكَ ربى وأسألك العون، وأستلْهِمك السَّداد، وأستعين بك فى جميع أمرى فإنه لا حول ولا قوة إلا بك، عليك أتوكلّ وإليك أُنيب. وأشكرك ربى وأسألك أن تَهَبنى الحكمة وفصل الخطاب، وأن تحفظ لسانى من فضول الباطل، وأن تغسل قلبى من غبْرات الضلالة، وعقلى من غباوة الجهالة، وأن تنير لى الطريق فلا أضلّ، وتكشف لى صواب القول فلا أزلّ. وأصلى وأسلم على المبعوث بالهدى ودين الحق، والداعى إلى الله الحق، سيدنا محمد، البشير النذير والسراج المنير، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

وبعد:

فالأمل معقود بنواصى هذه المحاضرات أن تلقى شعاعاً على دروب أدب الفترة التى تلّتْ نكبة بغداد على أيدى التتار، والتى سبقت قدوم نابليون بونابرت فى حملته الفرنسية إلى مصر؛ والتى تحمل أثقالها الدولتا: المملوكية والعثمانية. إذ فتئ هذا الأب يكتنفه الغموض، ويحتويه الإبهام، ومابرح هذا الأدب مفتقراً إلى مزيد من الجهد والعناية والدراسة

المتروية، التى تنشد الحق، والحكمة الصادقة، والتوجيه البنّاء، لنفتح أعين شبابنا على تراثنا القديم والمعاصر، ومجدنا التالد والحاضر، وحضارتنا التى خلّفتها الأجيال، لنصل بها حضارة تسير قُدما مع الزمان

وما من عصر أدبى أصابه من الظلم والجور والإهمال ما أصاب عصر هاتين الدولتين بعامة والمملوكية بخاصة.. فلأمر ما انصرف جمهور الباحثين – أو صُرفوا – عن دراسة هذه الحقبة، واكتفوا بالأحكام السريعة الظالمة؛ والمؤسف حقاً أن يُبْصِر هؤلاء الباحثون بعيون الشُعوبيّين المبغِين، وينفخون فى أبواق المارقين الذين يتلمّظون غيظاً من العصر وفرسانه، وتطفح قلوبهم حقداً ضد العصر وشجعانه.

والواقع يشهد أن هذه الحقبة ليست متوارية فحسب، ولكنها مفترى عليها أيضاً، فقد وصمها كثير من المؤرخين بالانحطاط أو الانحدار. ولست أسعى – فى مجابهة هذا الحكم الجائر – إلى القول بأن أدب العصر المملوكى والعثمانى أدب ازدهار أو إبداع، إذ لا جدوى فى مثل هذا الموقف من أحكام الاطلاق أو التعميم، فالقول بالازدهار جور، والقول بالانحدار جور، فالانحدار أو الانحطاط إن جاز على الفترة العثمانية، التى أغطشت فيها سماء الأدب العربى، ومشى الناس فى دياجير الجهل حيارى، فلن يجوز – بحال على الفترة المملوكية، التى تعد بمثابة الجسر بين الأدبين: القديم والحديث، والتى حافظ الأدب فيها على كثير من رونقه وبهائه ومائيته، وتماسك، وبقيت فيه أثارة من الحسن وبقية من البيان.. وما قيمة العصر المملوكى بالتى ينكرها من له عقل وقلب فى

تراثنا العلمى والأدبى؛ فلئن كان بعض أدبه يستحق ما وصف به من ضعف، فليس من الإنصاف أن ينسحب هذا الحكم على بعضه الآخر.. وليس من العدل إغفال غياب العصر العربى الحاكم.

إذ ينبغى أن نكون عادلين منصفين، ونعطى كل ذى حق حقه.

لم يتوقف موكب الأدب فى هذه الحقبة، بالرغم مما مُنِىَ به من انحسار المدّ، ونضوب المورد، وقلة الباعث، وعدم تفرغ الأدباء له، ليظل الأدب متصل الحلقات على امتداد التاريخ؛ ولولا المماليك، والشارق المضيء فى سماء مصر، والبارق اللامع فى جو الشام لانفصمت عُرى الأدب، وتقطعت به الأسباب.

ومن ثَمَّ آثرتُ هذا الإطلاق «الأدب بين التماسك والانحدار» مشيراً إلى العصرين على التعاقب.

ولعلى أكون بهذا قد أضفت لبنة إلى صرحنا الأدبى الشاهق، وشاركت فى إحياء تراثنا السامق، وأرجو أن أكون قد دنوتُ من مرافىء الصواب، ورويت ظمأ الصّادى، وعلالة المشوق، وحسبى أنى حاولت وأقدمت..

والله من وراء القصد

شفيق أبو سعدة

القاهرة فى: ٢٢ من شعبان ١٤٣٥هـ

الحلقة الأولى

سطور فى الصدور

منذ سنة ثمان وثمانين وأربعمائة للهجرة، أربع وتسعين وألف للميلاد، والمسلمون يعانون ويلات أعدائهم الطامعين. وشواظ حملاتهم المسعورة، ولا ريب، فالمسلمون قد مُنُوا على أيدى أعدائهم المتربصين بهم بضربات منكرة وهزائم مدمرة؛ لا لشىء إلا أن حضارة المسلمين قد أغرتهم، وتقدم بلادهم قد أذهلهم، ولله در ابن الوردى إذ يقول[١]:

لما رأوها أسرفت فى العلا .·. كان علاها منتهى ذنبها

كانت الحروب الصليبية المتعصبة، والتى هبت ريحها العاصفة على الشرق من الغرب، وحملت أوروبا أوزارها، متدرعة بحجج دينية، تسعى إلى الاستيلاء على بلاد المشرق، طمعاً فى ثرواتها، واستئصالاً لشأفة دينها، فأعمل الصليبيون معاولهم، وقست قلوبهم، فذبحوا الأبرياء، وسفكوا الدماء، وسبوا النساء وقتّلوا الأطفال، وخربوا الديار، ودمروا كثيراً من حضارة الإسلام؛ ويندى الجبين لأقل جرائم أولئكم المتعصبين؛ بيد أن هذه الحملات الصليبية المسعورة إن كانت قد نجحت فى بداياتها، وأثرى غزاتها، على حساب عنصر المفاجأة، والضعف الذى ينكى فى

---

(١) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٠٧.

جسم الدولة الإسلامية، بسبب التفكك الداخلى والتنازع الأعمى الذى ذهبت به ريح المسلمين وقوتهم آنذاك، وإن كانت بدايات الحروب الصليبية قد نجحت، فإن الهزائم قد حاقت بها بعد أن اتحد المسلمون تحت قيادة عماد الدين زنكى ثم ولده نور الدين محمود، الذى أوقف حياته على هذا الهدف النبيل، إخراج الصليبيين من بلاد الإسلام، ومن بعدهما كانت القيادة للقائد البطل صلاح الدين الأيوبى، الذى يعد ـ بحق ـ من الشخصيات النادرة فى تاريخ الإنسانية، فلم يكن قائداً حربياً ماهراً، أو سياسياً بارعاً فحسب، لكنه كان متعدد المثل الراقية، واحتفظت ذاكرة التاريخ لهذا الرجل بصورة البطل، مقرونة بأرفع معانى الإكبار والتقدير والإعجاب.

لقد أنزل الصليبيين من صياصيهم، وقذف الله به فى قلوبهم الرعب، فأوقع بهم هزائم ساحقة ماحقة، واسترد منهم ظفراً ما أخذوه من بلاد المسلمين عنوة، وما يوم حطين ببعيد!! وما فتح بيت المقدس بعازب!!

وقد كان لنبل صلاح الدين ومروءته وتسامحه وإنسانيته مع أعدائه أثر فى إعجابهم به، حتى إنهم وصفوه «بالجنتلمان»[1] ويقول رنسمان عندما فتح صلاح الدين بيت المقدس (٥٨٣هـ): «الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج منذ ثمان

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ٢/٢٣٢.

وثمانين سنة يخوضون فى دماء ضحاياهم، لم تتعرض آلآن دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد مكروه، إذ صار رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب، يمنعون أى اعتداء يقع على المسيحيين»[1] والفضل ما شهدت به الأعداء. وكان الظاهر بيبرس من القادة الذين أوجعوا الصليبيين. وأشبعهم ضرباً قاصماً، وانتزع منهم مدينة «صفد» و«سيس» فى سنة أربع وستين وستمائة، وفى سنة ست وستين وستمائه استولى على مدينة يافا وطرابلس وأنطاكية وحصن الشقيف وقلعة بغراس؛ ثم كانت نهاية الصليبيين على يد السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، ففى سنة تسعين وستمائة استطاع فتح مدينة «عكا» عنوة، وفى السنة نفسها أخذ مدينتى صور وصيدا، وفى سنة اثنتين وتسعين وستمائة أكمل الأشرف استعادة ما تبقى فى أيدى الصليبيين من مدن، لينهى بذلك العمل الرائع حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبى، بعد نضال طويل، وكفاح مستمر مرير. وهكذا «أثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من غيرها: فى رقتها وأسباب راحتها وتعليمها وأساليبها الحربية»[2].

والصليبيون من بعد غلبهم يغلبون، فالأيام دول، والدهر عبر؛ بل إن الأتراك السلاجقة فى الأناضول قد أضحوا بقوتهم البشرية وفتاء دولتهم

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٢/٧٥٢.

(٢) قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة محمد بدران. نشر جامعة الدول العربية ١٩٥٧م جـ٤ مجلد ٤ ص ١، وانظر العدوان الصليبى على بلاد الشام للدكتور جوزف نسيم يوسف ص ٣٦٢.

وحيويتها حرباً ضروساً على الدولة البيزنطية، فملكوا آسيا الصغرى؛ وإن العثمانيين منهم قد صاروا أعظم دولة فى البلقان بعد أن تمكن السلطان مراد الأول (٧٦١ ـ ٧٩١هـ) فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى من كسر قوتى: الصرب والبلغار. فوقع فى أيدى العثمانيين جزء كبير من شرق أوروبا إلى جانب البلقان، واستطاع السلطان مراد الثانى (٨٢٤ ـ ٨٥٥ هـ) أن يبعد شبح الخطر الأوروبى نهائياً، ليعيش الأتراك فى مأمن من جهة الدانوب، فقد اكتسح العثمانيون شبه جزيرة اليونان، وهزموا المجرمين والألبانيين، ثم كان الاستيلاء على القسطنطينية وضواحيها مهمة أعظم سلاطين هذه الدولة، السلطان الفاتح محمد الثانى (٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ) .. فقد كان الجهاد أسمى الأغراض التى ترمى إليها دولة العثمانيين.

ولم يكن الأدب بعامة والشعر بخاصة بنجوى من هذه الأحداث، فقد كان الأدباء يجاهدون بالألسنة إلى جانب إخوانهم المجاهدين بالأسنة، وكان للشعر أثر بارز فى مجريات أحداث الحروب الصليبية، فقط نشط الشعراء يبعثون الحمية، ويستنهضون الهمم، ويذودون عن المقدسات، ونشطوا يسجلون الوقائع، ويصفون الأحداث، ويمدحون القادة المجاهدين البواسل؛ فهذا ابن الخياط يحث على التصدى للغزو الصليبى قائلاً[1]:

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٨٤.

أنوما على مثل هذى الصّفاة ∴ وهزلا وقد أصبح الأمر جدًا؟!

وكيف تنامون عن أعين ∴ وَتَرْتُمْ فأسهرْتُموهن حقدا؟!

فسُدّوا الثغور بطعن النحور ∴ فمن حقّ ثغرٍ بكم أن يُسدّا

ويبكى أبو المظفر الأبيوردى بيت المقدس عندما سقط فى يد الصليبيين سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، ويحث المسلمين على استرجاع القدس، قائلاً[١]:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ∴ فلم يبق منا عُرضة للمَرَاجِم

فكم من دماء قد أُبيحت ومن دُمىً ∴ توارَى حياءً حسنُها بالمعاصم

دعوناكمُ والحرب ترنو ملحّة ∴ إلينا بألحاظ النسور القشاعم

فإن أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه ∴ رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

ويأسى شهاب الدين يعقوب بنّ المجاور لتخريب الأقصى، ويتفجع لتدميره، ويحزن قائلاً فى تائيته التى يحذو فيها حذو دعبل بن على الخزاعى[٢]:

أعينّي لا ترْقِىْ من العبرات ∴ صلِى فى البكا الآصال بالبُكرات

لعلّ سيولَ الدمع يُطفئ فيضُها ∴ توقّدَ ما فى القلب من جمرات

ويا قلبُ أسعر نارَ وجدِك كلما ∴ خبَتْ بادّكار يبعث الحسرات

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١٠/ ٢٨٤.
(٢) الروضتين ٢/٢٠٦.

على المسجد الأقصى الذى جلّ قدرهُ ∴ على مـوطن الإخـبْات والصلوات
على سُلّم المعـراج والصـخرة التى ∴ أنافَت بهاَ فى الأرض من صخَرات
على القبلة الأولى التى اتجهت لها ∴ صلاة البرايا فى اختلاف جهاتَ
لِتبْك عليـهـا مكةٌ فـهى أختُهـا ∴ وتشكو الذى لاقت إلى عـرفـات
لتـبك على مـا حل بالقـدس طيْبـةٌ ∴ وتشـرحـه فى أكـرم الحـجـرات

ويمدح ابنُ منيـر الطرابلسى عمادَ الدين زنكى لرأبه صدع المسلمين، وانتصاراته المتلاحقة على الصليبيين، بقصائد سيارة، منها قصيدته التى يقول فيها(١):

فـدتك الملوكُ وأيامُهـا ∴ ودام لـنقْضك إبْرامُهـا
وزلّت لعيـشك أقـدامـهـا ∴ وزال لبطشك إقـدامـهـا
ولـو لـم تُسلّمْ إليـك القـلو ∴ بُ هواها الما صَحّ إسلامها
أيا مُحْيىَ الدّين لمـا نعـا ∴ ه أيَامَى البـرايا وأيتـامُهـا

وابن القيسرانى يشيد بالزعيم البطل نور الدين محمود الذى كانت انتصاراته بعثاً للمسلمين من مرقدهم - بعدة قصائدة، منها بائيته التى حذا فيها حذو زبى تمام فى المعتصم فاتح عمورية - والتى يقول فيها(٢):

---

(١) الروضتين لأبى شامة المقدسى ١/٣٥.
(٢) الروضتين ١/٥٨ وما بعدها.

هذى العــزائم لا مــا تدّعى القُضُب ∴ وذى المكارمُ لا مــا قــالت الكتب

وهذه الـهِمَمُ الـلآتـى مــتـى خَطَبَتْ ∴ تعثَّرت خلفهـا الأشعار والخطب..

غـضـبـت للدين حـتى لم يفُتك رضى ∴ وكان دينَ الهدى مرضاتهُ الغضب..

فانهَضْ إلى المَسجد الأقصى بذى لُجب ∴ يُوليك أقصى المنى فالقدس مرتقَب

وائذن لِمَوْجِك فى تطهـيـر سـاحله ∴ فــإنمـا أنت بحـر لُجّه لجب

وما أكثر الشعر الذى مدح صلاح الدين، وأشاد بانتصاراته ومهارته الحربية وإنسانيته وكفاءته، وندد بالمتقاعسين عن الجهاد، ومن ذلك ماقاله الفقيه ابن أسعد الموصلى فى حائيته[1]:

همـو جـمـعـوا وقـد فـرّقتَ لكن ∴ جمعت به الرجال مع السلاح

وبونٌ بين مــالك بيت مــال ∴ ومــالك رق أمــلاك النّواحى

وكان العماد الأصفهانى فى جملة الشعراء الذين ابتهجوا بفتح بيت المقدس، واستعادة المسلمين عزتهم وكرامتهم، وواحد من الذين مدحوا الأيوبى وأشادوا وافتخروا، ومن قصد له:

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا ∴ وأشرف من أضحَى وأكرم من أمسَى

وقيل لنا: فى الأرض سبعة أبحر ∴ ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا

سجيّتهُ الحسنىَ وشيمته الرّضى ∴ وبطشتهُ الكبرى وعزمتهُ القَعْسى

جنودك أمــلاك الســمــاء وظنّهم ∴ أعاديك جنًا فى المعارك لا إنسـ

---

(١) مضمار الحقائق وسر الخلائق لمحمد بن تقى الدين الأيوبى ص ٤٤.

نزَعْت لبَاسَ الكفر عن قدس أرضها ∴ وأَلْبَسْتَهـا الدين الذى كـشف اللَّبْسا

وهكذا شارك الشعر فى الجهاد، ورصد أحداث الحروب الصليبية رصداً دقيقاً، وكان من بين شعراء هذه المرحلة قادة أولو بأس شديد وعزم أكيد، أمثال: أسامة بن منقذ والملك الصالح طلائع بن رزّيك..

وتنجلى غمة الحروب الصليبية بعد قرنين من الزمان، مخلفة وراءها دماراً ودماء وضحايا؛ بيد أن هذه الحروب لقنت المسلمين دروساً فى وحدة الصف، والالتفاف حول القادة المصلحين، وتناسِى الخلافات، ليحققوا انتصاراتٍ باهرةً على أعدائهم، كما حذرتهم الفرقة والشقاق، إذ بهما الدمار وسلب حرية الأحرار.

وتعد الحروب الصليبية الخطر الطاغى الأول فى هذه الفترة القاتمة. أما الخطر الثانى، وهو الأطغى والأدهى والأمرّ، فقد كلف من القتلى ما لم تكلفه جميع المعارك فى تاريخ العرب والإسلام، ألا وهو: غزو التتار للممالك الإسلامية:-

ففى الوقت الذى كان متعصبو الغرب «الصليبيون» يطحنون العرب والمسلمين فى الشرق، كان المغول الضاريون فى «منغوليا»[1] يزداد عددهم، وتقوى شوكتهم، ويشتد بأسهم، ويتهيأون تهيئة حربية، وينتظرون يوماً يشربون فيه دماء الناس جميعاً.

---

(١) فى جنوبى سيبيريا، الأطراف الشمالية لبلاد الصين.

وانطلقوا كالوحوش الضوارى من عقالهم حين تسلم أمرهم «جنكيز خان»[1] فتوغل بمجموعة فى الصين «أواسط آسية». وبدأ هجومه على بلاد الإسلام سنة ٦١٦هـ، إذ اتجه بوحوشه الهمج غرباً، فاستولى على خراسان وأذربيجان وأفغانستان ومَرْو ونيسابور، وكان قد استولى على بخارىَ، وجرقها عن آخرها، وسبى الآلاف من نسائها، وذبح ثلاثين ألفاً من رجالها؛ واستسلمت له سمَرْقَند، غير أن استسلامها لم يغن عنها فتيلاً من النهب المغولى والمذابح العامة.

وقد وصف «ابن بطوطة»[2] الرَحالةُ هذه البلادَ حين زارها بعد ما يزيد عن مائة عام من ذلك الوقت: «بأن أكثرها لا يزال خرائب ينعق بها البوم». حيث كان البلاء بالتتار عاماً فى بلاد آسية، وخصوصاً فى بلاد المسلمين، فإن كثيراً من البلدان الإسلامية التى اجتاحها التتر قد خلت كلها من أهليها أو كادت.

لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول، وكان الهدف منها، شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب فى قلوبهم، وإرهاب المغلوبين على أمرهم، حتى لا يفكروا فى الخروج عليهم.

وعاد جنكيز خان إلى بلاده، ليهلك فى فراشه، وكان قد خلف وراءه امبراطورية واسعة الأرجاء. وقد كان اجتياح المغول لبلاد المشرق

---

(١) الملك العام.

(٢) الرحالة المغربى المعروف المولود فى طنجة سنة ٧٠٤ والمتوفى سنة ٧٧٩هـ استغرقت رحلاته زهاء ٢٩ سنة، وهو صاحب كتاب «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

وخاصة الإسلامية هائلاً مفجعاً، حتى قال «ابن الأثير» فى أخبار سنة ٦١٧هـ «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لها، كارهاً لذكرها... فمن ذا الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين؟! فياليت أمى لم تلدنى... وياليتنى مت قبل حدوثها!!» ثم اندفع «هولاكو» حفيد جنكيز خان اندفاع العاصفة الهوجاء بالتتر، يكتسح البلدان كسحاً، ويمسح أهلها مسحاً، لم يقف فى وجوههم جبل شاهق، ولا حصن حصين، إلى أن وصل «هولاكو» إلى بلاد فارس فملكها، ثم ولّى وجهه شطر بغداد، وخدع الخليفة «المستعصم بالله» وفقهاء المدينة وأعيانها، حتى حضروا إليه بمعسكره، فأمر بذبحهم، ثم هجم على دار الخلافة، فاستولى عليها، وقتل أهلها، وسبى أطفالها؛ وأباح بغداد أربعين يوماً، فخرب المغول الهمج المساجد ليحصلوا على ذهب قابها، وجردوا القصور مما بها من التحف، وأحرقوا الكتب.

وأصبحت بغداد قاعاً صفصفاً، ليس فيها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان، وكان القتلى فى الطرقات كأنها التلال.

ولما نودى بالأمان خرج من تحت الأرض من كان قد اختفى فى المطامير والمقابر، ومن لجأ إلى الآبار والحشائش، كأنهم الموتى قد نُبشت قبورهم؛ وما هى إلا أيام حتى انتشر الوباء فحصدهم حصداً، فلم يُبْقِ ولم يذر.

على أنه لا شك فى: أن المدينة قد فقدت معظم سكانها، وضاعت ثروتها الأدبية والفكرية، التى عُنى الخلفاء العباسيون بجمعها منذ بنى أبو

جعفر المنصور بغداد، واتخذها حاضرة لدولته. وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية، التى كانت رمزاً لمجد قديم، وملك وارف الظلال، وانمحت الخلافة التى عاش فى ظلها العالم الإسلامى زهاء خمسة قرون ـ ١٣٢ :٦٥٦هـ ـ ولم تعد بغداد مركز النور ومعين الثروة والرخاء، وكعبة العلماء والأدباء، فقد أضحت حاضرة العباسيين طعمة تلتهمها النيران المستعرة، وتغرقها الدماء المهراقة، ولم يحدثنا التاريخ أن حضارة زاهرة كالحضارة العربية الإسلامية فى بغداد قد اختفت فى مثل هذه السرعة.

إنها لكارثة عظمى لم يعرف التاريخ لها مثيلاً فى شناعتها، وسرعة تقويضها دعائم مدنيَّة أشرقت على بلاد واسعة الأرجاء، ممتدة من الصين شرقاً إلى بحر الروم غرباً[١].

ولقد كان لغياب شمس الخلافة عن بغداد، التى هجعت تحت ركام الحرائق، والتى امتدت إلى كنوزها ونفائسها العلمية والأدبية براثن الجريمة؛ فأطاحت بالأسفار والأمهات فى عباب دجلة، كان لهذا أثره فى استيلاء الحزن على نفوس الشعراء، فانكبّوا يبكون وينعون، وهذا شمس الدين محمود الكوفى، الذى فارق صحبه وأصدقاءه فى بغداد على أمل اللقاء، إلا أن الفاجعة المروعة قد حالت بينه وبين ما أمّل، فقال:

---

(١) انظر: مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى. د/ بكرى شيخ أمين طبعة بيروت ص٤١ وما بعدها.

إن لم تقـرّح أدمـعى أجـفـانى ∴ من بَعـد بُعـدكمُ فـمـا أجـفـانى

إنسـان عـينى مـذ تناءت داركم ∴ مـا راقـه نـظـرالى إنسـان

يا ليـتنى قـد متُّ يوم فـراقكم ∴ ولسـاعـة لتـوديع لا أحـيـانى

مـا لى وللأيام شـتت شـملهـا ∴ شـمـلى وخـلانى بلا خِلانى

....

مـا للمنازل أصـبـحت لا أهلهـا ∴ أهلى، ولا جـيـرانهـا جـيـرانى!!

وحـيـاتكم مـا حلّهـا من بعـدكم ∴ غـيـرُ البلى والهـدمِ والنيـران!!

لقد استبد بالشاعر الحزن، فطاف بمعالم بغداد يبكى، ويبحث فى أرجائها، فلا يجد فيها أثراً إلا الحرائق والخرائب(١).

ويبدو أن حزن الشاعر على أصدقائه قد طغى عليه، فلم يتناول معالم المدينة المنكوبة إلا تناولاً يسيراً(٢)، بينما ذكر باللوعة والأسى ما حل بالمدينة الشاعر تقى الدين اسماعيل بن أبى اليسر التّنوخى، فى قصيدته التى استهل مطلعها متخيّلاً أن قادماً يجهل الخَطْبَ، يتطلع إلى لقاء بنى العباس، ويطمح فى مجالسة العلماء والأدباء، فابتدره الشاعر قائلاً:

لسـائلِ الدمع عن بغـدادَ أخـبـار ∴ فما وقوفك والأحباب قد ساروا؟!

---

(١) وما أصدق قول «ابن دانيال» فى تمثيلية «بابة» (طيف الخيال) ص ١٥٩

من بعد ما أصبحت طير الخراب ∴ عى أسافلها تبكى أعاليها

(٢) وهو القائل فى مصرع بغداد الميمية التى منها:

فمتى قبلت من الأعادى ساكناً ∴ بعد الأحبة لا سقاك غمام

انظر د/خفاجى فى الحياة الأدبية فى مصر.

وما عاد الزائر أدراجه قافلاً، ولكنه ظل واقفاً لا يريم، وكأن النبأ أذهله هو وقافلته، فصرخ الشاعر فيهم، وهو المقطب المكلوم:

يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ∴ فما بذاك الحمى والدار ديّار

تاج الخلافة والربع الذى شرَفت ∴ به المعالم قد عفّاه إقفار

أضحى لعطف البلىَ فى ربعه أثر ∴ وللدموع على الآثار آثار

وكم ذخائر أضحت وهى شائعة ∴ من النهاب وقد حازته كفار

وكم حدود أقيمت من سيوفهمُ ∴ على الرقاب وحُطت فيه أوزار

آل النبى وأهل العلم قد سُبِيوا ∴ فمن ترى بعدهم تحويه أمصار؟!

وأخذ المغول بعد تدمير بغداد يتوغلون فى بلاد العراق والشام، ويمنعون فى تقتيل أهلها، وتخريب مدنها، ونشر الذعر بين سكانها، فساروا إلى حلب، وفتحوها عنْوة عام ٦٥٨هـ، ثم استولوا على «حماة وحمص» صلحاً، واستسلمت دمشق.

ثم حاول المغول غزو مصر، فبرز لهم عندئذ الملك المظفر «قطز» بجيشَ من عساكر مصر والشام، والتقى الجيشان فى «عين جالوت» قرب الناصرة بفلسطين، ودارت الدائرة على المغول، وارتدوا على أعقابهم منهزمين أمام جيش مصرى شامى، يقوده «قطز وبيبرس» المملوكان سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م.

وزُفّت البشرى إلى كل مكانَ فى بلاد العرب وأوربة نفسها، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، فلقد حلّ الطلسم، وذهب الروع والفزع، ذلك أن معركة حاسمة دارت رحاها فى عين جالوت،

أسفرت عن هزيمة المغول، «الجيش الذى عُرِف عنه وقتذاك أنه لا يهزم» ونجت مصر وبلاد الشام من الكابوس الرهيب، وانساب الشعراء ينشدون أشعار النصر، ويغنون أهازيج الابتهاج، وشرعوا ينثرون على المظفر «قطز» ورود أشعارهم وأزاهير أناشيدهم[١]، كما نثروها من قبل على «صلاح الدين الأيوبى» عندما تصدى للصليبيين وسحقهم فى (حطين) كذلك استطاع «بيبرس» الذى خلف قطز، أن يؤسس دولة قوية الأركان، منيعة الجانب فى مصر والشام، وأن ينزل بالتتار الذين أفاقوا من هول الهزيمة فى عين جالوت، فأعدوا العدة لغزو الشام مرة أخرى، استطاع بيبرس أن ينزل بهم هزيمة ساحقة؛ فقد زحف إليهم بجيش جرار لجب، والتقى بهم على ضفاف الفرات ـ بعد أن فروا من لقائه ـ سنة ٦٦٦هـ، واستأصل شأفتهم، وفى هذا النصر الذى أحرزه المسلمون على التتار نظم الشعراء القصائد، كقصيدة الشاعر محمد بن يوسف المهمندار، والتى منها:

لو عاينت عيناك يوم نزالنا ∴ والخيل تضبح فى العجاج الأكدر
وسنا الأسنة والضياء من الظبا ∴ كشف الأعين ناقتام العثير
وقد اطْلَخَمَّ الأمر واحتدم الوغى ∴ ووهى الجبان وساء ظن المجترى
لرأيت سدًا من حديد سائدًا ∴ فوق الفرات وفوقه نار ترى
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزُّبى ∴ ومن الفوارس أبحرا فى أبحر

---

(١) تنبئ عن ذلك قصيدة شهاب الدين العزازى (ديوان ص ٦٣ ومابعدها) والتى حذا فيها حذو عمرو بن كلثوم، والتى منها:

وقاتلنا جيوش (المغل) حتى ∴ شفينا منهم الداء الدفينا
وسالت بالدماء الأرض حتى ∴ أفاضت (عين جالوت) عيونا
أخذنا ثأر بغداد وعجنا ∴ على حلب وميتا فارقينا

وكقصيدة شهاب الدين محمود التى يقول فيها:

لما تراقصت الرؤوس وحرّكت ∴ من مُطربات قسيك الأوتار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى ∴ بحراً سواك تقله الأنهار
وتقطعت فِرَقاً ولم يك طودَها ∴ إذ ذاك إلا جيشك الجرار
رشّت دماؤهم الصعيد فلم يطر ∴ منهم على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيكَ المعاقلُ والورى ∴ والتربُ والآساد والأطيار
فلأملأن الدهر فيك مدائحاً ∴ تبقى - بقيتَ - وتذهب الأعصار

إن مثل هذا الشعر أثر من آثار ابتهاج المسلمين بانتصارهم على أعداء الإسلام، وحرصهم على حمايته والذود عن حماه، وهو من قبيل شعر الجهاد، والحماس للدفاع.

كما استطاع بيبرس أن يصمد مع غيره من المماليك أمام غارات الصليبيين أيضاً، ومن ثم خلفت القاهرة بغداد، وأضحت مصر بفضل المماليك والأزهر الشريف وجهة أنظار العلماء والأدباء فى العالم الإسلام.

صانها الله وزانها، وتَوّج بالفخار أهلها....

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ∴ أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا..
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ حسابهم ∴ شُمّ الأنوفِ من الطراز الأوّل(١)

---

(١) راجع: الزدب فى بلاد الشام. د/ عمر موسى باشا، الأدب فى العصر المملوكى. د/ محمد كامل الفقى، تاريخ الأدب العربى. د/ أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربى الجزء الثالث. د/ عمر فروخ، ديوان حسان بن ثبات. وثائق العصر المملوكى. د/محمد ماهر حمادة، وغيرها من المراجع التى أشرنا إليها آنفاً....

الحلقة الثانية

مَنعة اللغة العربية ومقاومتها لعوامل الفناء

اعتورَتْ الدولةَ العباسيةَ الأرزاءُ واجتمعت عليها الأعداء، بسبب الإحن والضغائن، وذهاب جلال الخلافة وهيبتها من النفوس حتى قوض عرشها، هولاكو.

لقد كان اجتياح المغول للمملكة الإسلامية فى المشرق ضربة قاصمة لظهر اللغة العربية، فقد وضع هؤلاء الوحشيون الأميون أيديهم على تراث العرب، فخربوا الديار، ودمروا المعالم، وهتكوا الحدود، وفجعوا اللغة العربية وآدابها وعلومها، بتحريق المكتبات، وتغريق الكتب والنفائس العلمية والكنوز الأدبية، وتعطيل المدارس، وتقويض المراصد، وتقتيل العلماء والأدباء، وشنوا على اللغة العربية حرباً شعواء، كان من نتائجها: أن هجرتها الألسنة فى التخاطب فى كثير من هذه البلاد، فضعفت واستكانت، وضعف لضعفها أدبها؛ ولم تكن هذه الضربة هى الضربة الأولى ولا الأخيرة، فقد تعرضت من قبل لطعنات هؤلاء الذين حاولوا الإطاحة بصرحها الشاهق المنيع، عندما هب أحفاد الأكاسرة وأبناء الدهاقين – فى ظلال بنى بويه[1] – فى أوساط القرن الرابع للهجرة، هبوا

---

(١) الذين وضعوا أيديهم على شؤون الدولة فى بغداد، وامتد نفوذهم إلى جل الممالك الشرقية، وأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع فى المشرق، وقد دام ملكهم من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٤٨٨هـ.

يستردون مجد أجدادهم، ويطاردون اللغة العربية ونفوذها من بلادهم، ليحيوا اللغة الفارسية ويمكّنوا لها، ويجعلوها لغة الأدب والعلم، وطلبوا إلى شعرائهم من أمثال: الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الأسلاف، بتأليف المنظومات القصصية والأناشيد القومية.

ومن العجب العجاب أن تم لهم ما طمحوا إليه سريعاً، فإن المتنبي ــ وهو من رجال القرن الرابع ــ يقول ــ وقد زار شِعْب بوان من بلاد فارس[1] ــ:

مغاني الشّعب طيبا في المغاني ∴ بمنزلة الربيع من الزمان

ولكنّ الفتى العربي فيها ∴ غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها ∴ سليمان لسار بترجمان

إذا غنى الحمام الوُرْق فيها ∴ أجابته أغاني القيان

ومَن بالشّعب أحوجُ من حمام ∴ إذا غنّى وناح إلى البيان

واقتدى بالفرس في شق عصا الطاعة على اللغة العربية وطعنها «الأتراك والأكراد» ولكن العربية الشماء بقيت في حمى القرآن الكريم تدافع سيل الفارسية والتركية الجارف، وقد عزّ النصير من أهلها، ثم تعرضت بعد ذلك لاضطهاد الأتراك العثمانيين، حين مكنّوا للغتهم التركية، وقربوا مواردها، وبسطوا قواعدها، وسموها اللغة العثمانية، وجعلوها اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والمراسلات.

---

(١) راجع شرح ديوان المتنبي للبرقوقي [illegible] ٣٨٢ وما بعدها طبعة بيروت.

ففشا فى اللغة العربية الدخيل، وزاحمتها العامية والتركية، وذهبت أساليبها من النثر والنظم، وحسبوا أنهم بذلك قَبَرَوا اللغة العربية، وأسدلوا عليها ستار النسيان، ولكن هيهات هيهات!!

بيد أن اللغة العربية غُلِبت على أمرها عندما غلب المغول على بغداد وبلاد فارس، بعدما خلفت فى هذه البلاد شرائع وعلوماً وآداباً لم تقْوَ على محوها الأيام.

فقد كانت وطأة التتار عليها وعلى آدابها عنيفة، فكسدت وعجزت قرائح أدبائها عن الابتكار والإبداع، وصمتت بلابلها بين أغصان حزينة.

وبدا هذا الضعف بوضوح فى: الخطابة والكتابة والشعر، لبُعدِ أولئكم القوم عن الأدب، وجهلهم إياه بلّه تذوقهم لجماله.

فأما الخطابة: فكانت فى نير المغول شبه معدومة، إذ انحصرت فى الخطب الدينية يلقيها خطباء مأجورون بالمساجد، وكانوا لعجزهم يعتمدون على دواوين، ألفها مؤلفون، لكل جُمَع السنة. تدور فى فلك العبارات السقيمة، والمعانى الهزيلة، لا صلة بينها وبين فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ ولا رباط بينها وبين مراعاة مقتضيات الأحوال الدنيوية والأخروية.

وقد استمر الضعف ينكى بها على هذا العهد بالمَشرق حتى كانت من الموت قاب قوسين أو أدنى.

وأما الكتابة: بنوعيها الديوانية والإخوانية: قد دَرَسَت معالم الكتابة الديوانية، وانمحى أثرها، لأن المغول ما كانوا يعبأون بالدواوين أو النُظم.

ولا يقيمون للثقافة أو الإدارة وزناً؛ ولهذا لم يكن عجيباً أن يستأصلوا ديوان الإنشاء، فانقرضت بذلك الكتابة الديوانية.

كذلك ضعفت الكتابة الإخوانية، وقل رجالها، نتيجة تمكن الهلع والرعب من النفوس، وتفكك أواصر الاتصال بين أفراد المجموع.

وإزاء عجز الناس عن الكتابة الإخوانية تحت وطأة المغول ظهرت منشئات يستعان بها ـ أسوة بدواوين خطب المساجد ـ كديوان المنشئات لنظام الدين الأصفهاني ـ المتوفى سنة ٦٧٨هـ.

وأما الشعر: فقد كان ضعفه بادياً، في ألفاظه وأساليبه ومعانيه وأخيلته وأغراضه وفنونه ـ في العصر المغولي بالمشرق ـ الذي استمر زهاء ثلاثة قرون لأن بطش المغول وعسفهم قيّد الألسنة، وشغل الخواطر، وعقل العقول، فاشتد جمود القرائح، وعز النابغون في دولة الشعر وعالم القريض، بسبب العسف والبطش والقهر، وجهل المغول المتسلطين بالعلم، وخواء وفاضهم من الذوق الأدبي والحس المرهف؛ وما كان يدور في خلد أحد أن ترفع اللغة العربية بعد ذلك عقيرتها قائلة على لسان حافظ إبراهيم:

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ∴ فهل ساءلوا الغوّاص عن صدفاتي؟!!

وأن تستأنف حياتها، ويعظم شأنها، كما هو حالها في العصر الحديث.

لقد انقرضت لغات كثيرة عندما واجهت اللغة العربية، ولم تتعرض لاضطهاد أو صراع ـ كاللغة القوطية في الأندلس، والقبطية في مصر،

والرومية فى الشام، والفارسية فى فارس والعراق، ولكن اللغة العربية بقيت على مرغمة الحوادث لساناً للدين والعلم، ولغة للحكام والأمة فى بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة.

والسر فى بقاء اللغة العربية - على فناء أهلها - ومقاومتها لعوامل الفناء إنما يعود إلى:

١ - أنها لغة الذكر الحكيم، الذى ضمن الله حفظه، والمعبرة عن علوم الدين.

٢ - مرونتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وقيامها بخدمة الحضارة خير قيام؛ ووقائع التاريخ بذلك شاهدة، فقد عجزت الفارسية فى الشرق، والتركية فى مصر، أن تجاريا اللغة العربية فى هذا المضمار.

٣ - رسوخ النزعة الدينية فى قلوب المشارقة.

٤ - الأزهر: الذى اضطلع بعبء الدفاع عن اللغة العربية، وحشد كل طاقته للذود عن حياضها والنيل من مناهلها، فحمى حماها من التقلص أو الزوال، وعلومها من الضياع أو الاضمحلال.

٥ - سلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك، فقد كانوا للعربية ردءاً، ولأبنائها حرزاً، ولعلمائها وزراً، حينما اكتسح المغول خراسان وفارس ثم العراق، وقد نبغ فى ظل المماليك أولئكم الأعلام الأفذاذ الذين جمعوا شتات اللغة والعلوم فى المجموعات والموسوعات، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص، وهذبوا التاريخ، ووضعوا منهجه، وأقاموا للشعر وزناً على قلة العارفين بفضله، والمستمعين إلى

أهله، كابن منظور، والفيروزبادى، وابن خلدون، والقلقشندى، والنويرى، والشاب الظريف، وصفى الدين الحلى، وابن الوردى، وابن معتوق، والصفدى، وغيرهم.

فإذا كانت اللغة العربية قد كَبَتْ بها الجدود العواثر، فانمحت من الهند وخراسان وفارس والعراق وبلاد الروم والأندلس، فقد بقيت شامخة فى مصر والشام وبلاد العرب.

حقيقة لقد أغطشت سماء الأدب العربى فى عصر المغول، فعميت البصائر، وضلت القرائح، ومشى الناس فى دياجير الجهل حيارى، لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق فى سماء مصر، أو بارق فى جو الشام، فلولاهما لانقطع ما بين الأدبين: القديم والحديث.

ولعلك ترى معى أن الله جل شأنه لم يشأ أن يصيب لغة كتابه الكريم بالعقم، حين ألحّت عليها أرزاء الدهر، وتخونتها أعراض الهرم؛ حفظاً لكتابه، وصوناً لدينه؛ فكانت تنجب حيناً بعد حين علماً من أولئك الأعلام، يجدد منها ما اندرس، ويرأب فيها ما انصدع، وينقذها من يد البلى والعفاء:

نجوم سماء كلما انفض كوكب .·. بدا كوكب تأوى إليه كواكبه(*) !!

ولعلك ترى معى أيضاً أن العالم الإسلامى من منتصف القرن السابع الهجرى تقريباً إلى ما بعد نهاية القرن العاشر كان نهباً مقسماً بين أجناس غير عربية، من مغول وترك وفرس وجركس وأسبان، وأنه لم يكن

(*) راجع: تاريخ الأدب العربى للزيات. نظم العقيان للسيوطى. وغيرهما...

للعرب فى هذه الفترة لواء معقود، ولا ظل ممدود ـ اللهم إلا ما كان على شكل إمارات فى المغرب واليمن ـ.

وأن جملة هؤلاء قد وضعوا أيديهم ـ فى ضراوة ـ على تراث العرب، فخربوا وهتكوا ونهبوا وأحرقوا، وفجعوا اللغة العربية وآدابها وعلومها، بتحريق المكتبات، وتعطيل المدارس، وتقويض المراصد، وتقتيل العلماء؛ ولا ينبئك مثل خبير عما فعله التتار ببخارى وبغداد، والصليبيون ببلاد الشام، والفرنجة الأسبان بالأندلس!! فلو أن الزمان عفى على اللغة العربية، وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك بدعاً من القول، ولا حدثاً فى التاريخ!!

الحلقة الثالثة

مصر مثابة العلماء والأدباء

نكبت الحضارة الإسلامية فى بغداد، وطغى عليها سيل التتار الجارف، حتى لجت فى ويلاتها وظلماتها تنعى من بناها، فالكارثة بحق كارثة إنسانية مروعة، قتلى لا يحصيهم عد، وخراب ودمار، وإحراق ما فى دور الحكمة وخزائن الكتب من نفائس علمية وذخائر أدبية، حتى دفعتهم همجيتهم إلى بناء جسور من أمهات الكتب[1] وهذه خسارة لا تعوض. وكان من أسوأ آثار هذه النكبة ـ إلى جانب إتلاف دور الكتب ـ قتل فئة غير قليلة من العلماء، منهم الأستادرار محيى الدين بن الجوزى، الذى صرع مع أولاده الثلاثة، والشيخ يحيى بن يوسف الصرصرى الضرير الشاعر[2]. ولسنا ندرى أوجد العلم بالكتب التى أتلفت والعلماء الذين قتلوا بديلاً؟ فكفكف العبرة عليهما والزفرة. أم ما فتئ يعاوده أنينه وتفضحه عيونه؟!

لقد كانت الخلافة العباسية ـ مع ضعف سلطانها ـ الظل الوارف الذى يفئ إليه المسلمون. فلما قوض الطغمة الطغاة معالم حضارتها وصروح مجدها ومدنيتها، واستبدلت وحشيتهم بالعلماء، تطلع العلماء الناجون بأرواحهم إلى ملجأ يحميهم، فلم يجدوا غير مصر، ذلك المكان

(١) انظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥١/٧.
(٢) المصدر السابق.

الذى ينبت العز، ويرعى العلم، ولا تعبث فيه يد الفساد، فولوا وجوههم شطر حرمها الآمن فى ظلال المماليك، الذين كانوا يؤمنون بالإسلام، ويخلصون له، ويتحمسون للغته وعلومه وآدابه؛ ورأى العلماء والأدباء فى مصر ما يصبون إليه، من أمان وتكريم وإغداق، فقد وطأ المماليك أكنافهم للعلماء والأدباء، وأحلوهم محل الحب والتقدير والكرامة، وبدلوا خوفهم أمناً، وضيقهم سعة، فهرع العلماء إليها، وتقاطروا عليها.. وشاء الله عز وجل أن تكون مصر المصونة موطناً للغة الضاد، ومسكناً لآدابها، ومستقراً لعلومها.. .

وقد تجمعت فى مصر أمواج زاخرة من العلماء والأدباء من العراق والشام والفرس وافريقية والحجاز والأندلس، حين ضعف أمرها بانفراط عقدها فى عهد ملوك الطوائف، وبذلك تحول التيار الفكرى والمد الثقافى إلى مصر، لتنفرد مصر المحروسة بالزعامة العلمية والأدبية والسياسية بين الحواضر الإسلامية، ولينعقد لها لواء الريادة الفكرية والحضارية، يقول ابن خلدون: «واختص بالعلم بالأمصار الموفورة الحضارة، ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر، فهى أم العالم، وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصنائع». وأضحت القاهرة خليفة بغداد منذ منتصف القرن السابع الهجرى وطوال قرون طويلة تالية.

كان ممن وفدوا على مصر من علماء المشرق وأدبائه: الخطيب القوزينى (ت: ٧٣٩هـ) وتاج الدين على التبريزى (ت: ٧٤٦)(*) وسعد

(*) وهو غير التبريزى «الخطيب أبو زكريا» تلميذ أبى العلاء، وشارح ديوان الحماسة وسقط الزند، والمتوفى سنة ٤٢١هـ.

الدين التفتازانى، وصفى الدين الحلى (ت: ٧٥٠) ومن الشام وبلاد العرب وإفريقية: كمال الدين بن النديم ـ الفار من وجه التتار فى حلب إلى المماليك فى مصر، والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ، وابن منظور الافريقى، صاحب لسان العرب (ت: ٧١١هـ) وابن أبى حجلة المغربى (ت: ٧٧٦هـ)، والشهاب الحجازى (ت: ٧٩٠هـ) وابن خلدون (ت:٨٠٨هـ)، والمقريزى صاحب الخطط (ت: ٨٤٥هـ).

ومن المغرب الأندلسى: ابن سراقة الشاطبى، من أعلام العلماء المشهود لهم بغزارة العلم وسعة الفضل، ولى فى الديار المصرية مشيخة دار الحديث الكاملية إلى حين وفاته سنة ٦٦٢هـ وابن سعيد على بن بن موسى (ت: ٦٧٣هـ) صاحب لمؤلفات الضخمة الفخمة، منها: المغرب فى حلى المغرب، والمشرق فى أخبار المشرق، والغصون اليانعة فى أخبار المائة السابعة: والشريشى الأندلسى محمد أحمد النحوى (ت: ٦٨٥هـ) وأبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسينى (ت: ٧٦١هـ) وقيل: إنه كان آية الله الباهرة فى العربية والبيان والأدب[١]، وقد شرح مقصورة حازم القرطاجنى. لقد أحسنت مصر استقبالهم، وأكرمت وفادتهم، وأمنت معاشهم، واحتضنت علمهم وتراثهم، فانصرفوا إلى التأليف والنظم والكتابة وجمع شوارد العلوم.

وتضافرت جهود العلماء فى مصر لخدمة علوم الدين ولغة الضاد، وصارت بمصر نهضة مباركة، يحدوا العلماء والأدباء شعور بالواجب

---

(١) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ١٩٣/٦.

الإنسانى بعد الكارثة، ذلك الواجب هو أن يغذوا السير فى سبيل إحياء العلوم التى بيدت، والكتب التى أتلفت، وهم أحرى الناس بالاضطلاع بهذه المسئولية التاريخية، والانكباب على التصنيف والتأليف، لعل العلم يندمل جرحه، ولعل الدين يلتئم قرحه؛ وهذه مسئوليتهم العظمى أمام الله والتاريخ؛ إضافة إلى غيرة العلماء والأدباء على مجد العروبة والإسلام، وحرصهم على أن يجددوا شباب اللغة بعد الفتن التترية الحالكة.

وقد أجادوا وأفادوا وألفوا وصنفوا وكتبوا وبوبوا موسوعات جامعة، أو دوائر معارف جليلة الشأن عظيمة القدر. وضاعف فى همتهم ما كان بين علماء مصر والشام من منافسات، وما كان للعلماء والفقهاء من مكانة مرموقة ووجاهة ونفوذ وسلطان، حتى على السلطان، فهذا الظاهر بيبرس مع قوته ومكانته يقول حين وفاة الشيخ عز الدين بن عبدالسلام: «ما استقر ملكى إلا الآن».

كان حدب المماليك على العربية وعلومها راجعاً إلى: نشأتهم فى مواطن العربية، إذ لم يكن لهم تاريخ يتعصبون له، ولا أدب يجدون فى نشره. وإدراكهم حقيقة الشعب الذى يحكمونه، ووقوفهم على مفتاح شخصيته، وتعصبه لدينه ولغته، ومن ثم لا يستطيعون الظهور بغير التجلة والإعزاز لهذا الدين وتلك اللغة. وقد اطمأنوا إلى أن أقرب السبل إلى قلوب الأمة هو الحدب على الدين وخدمة العلم. ويقينهم كذلك من تقاصر اللغتين: التركية والجركسية عن النهوض بشئون الملك وضبط العلوم والقضاء، وعدم غنائهما فى الصلة بين السلاطين والوطن العربى، الذى يحيا على العربية ديناً وأدباً وحياة.

إلى جانب سعى المماليك الدءوب إلى تخليد أسمائهم ورفع أقدارهم، بطيب الذكر وجميل الأحدوثة، وما يحققون من مآثر، ويخلفون من آثار، تبقى على أيدى الدهر..

وأياً ما كان الأمر فالمعول عندنا على النتائج الإيجابية التى انتهت إليها العربية وعلومها..

كان من أهم مظاهر بر المماليك باللغة العربية:

اتخاذهم بطانتهم وحاشيتهم من النابهين فى الإنشاء والترسل، وفسحوا لهم مجال الترقى فى ديوان الإنشاء، واحتضنوا اللغة العربية، وجعلوها اللغة الرسمية للدولة، ونبه على أيديهم شأن ديوان الإنشاء، حين قصروا العمل فيه على أصحاب الأقلام المنشئة وذوى النباهة فى ميدان الترسل، فاستحثوا العزائم وحملوا بالتنافس على الترقى إليه همم المنشئين..

لقد كانت للغة الضاد أيام ازدهار ديوان الإنشاء دولة قائمة، ذهبت ريحها، وتقصفت أقلامها بعد سيطرة العثمانين، والقضاء على ديوان الإنشاء، وتقلصت مكانة اللغة العربية، فلم تعد اللغة الرسمية، إذ حلت التركية محلها فى الدواوين والمخاطبات السلطانية.. وقد كانت إصابة اللغة العربية وآدابها دامية غائرة(*).

(*) راجع فى هذا الموضوع: الأدب فى العصر المملوكى للدكتور محمد زغلول سلام. الأدب فى العصر المملوكى للدكتور محمد كامل الفقى. الأدب العربى فى عهد الفاطميين إلى اليوم للدكتور محمود رزق سليم. الأدب فى بلاد الشام للدكتور عمر موسى باشا. عصر سلاطين المماليك للدكتور محمود رزق سليم. مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى للدكتور بكرى شيخ أمين.

الحلقة الرابعة

المماليك:

السّاسة والسّياسة

قبل اجتياح المغول بغداد، وقضائهم على الخلافة العباسية فيها تسع سنوات، كان المماليك قد أقاموا دولة لهم فى مصر، وبسطوا نفوذهم على الشام والحجاز: قامت دولتهم فى الحقبة الممتدة من سنة ثمان وأربعين وستمائة إلى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة للهجرة (١٢٥٠ - ١٥١٧م)، (زهاء ثلاثة قرون).

ودولة المماليك فرعان: المماليك البحرية[١] (٦٤٨ - ٧٨٤هـ ١٢٥٠ - ١٣٨٢م) وتبدأ سلسلة ملوكهم بالسلطان «عز الدين أيبك التركمانى» وتنتهى بالسلطان «زين الدين حاجى» ومن أشهر سلاطين البحريين وأبعدهم أثراً: المظفر قطز، والظاهر بيبرس البندقدارى، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، والناصر حسن.

والمماليك البرجية[٢] (٧٨٤ - ٩٢٣هـ ١٣٨٢ - ١٥١٧م) وتبدأ سلسلة ملوكهم بالسلطان «الظاهر سيف الدين برقوق الشركسى» وتنتهى

---

(١) نسبة إلى سكناهم فى ثكنات جزيرة الروضة على نهر النيل، الذى تسميه العامة البحر.
(٢) نسبة إلى إقامتهم فى أبراج القلعة بالقاهرة.

بالسلطان «طومان باى» ومن أشهر سلاطين البرجيين: سيف الدين برقوق والمؤيد شيخ، وبرسباى، وقايتباى، وقانصوه الغورى..

والمماليك ـ كما يدل اسمهم ـ كانوا فى الأصل أرقاء، مختلفى الأجناس والقوميات، ابتاعهم وامتلكهم سلاطين مصر ليجعلوهم فى عداد جنودهم؛ وكان الملك الصالح «نجم الدين الأيوبى» قد استكثر منهم؛ حتى بد منهم رجال قبضوا على ناصية الحكم. والمملوك ـ فى العصور الوسطى ـ كان يدل على كل رقيق أسر فى الحرب، أو اشترى من أسواق الرقيق المنتشرة فى أوساط آسيا وغربها، وشمال أوربا وأصقاها؛ إذ كانت تجلب الغلمان من بلادهم السحيقة إلى تلك الأسواق، عن طريق تجار تمرسوا فى التجارة بالجنس البشرى والبضاعة الآدمية عرفوا بالنخاسين. كانت مصادر تجارتهم موزعة بين: الخطف والقحط والغلاء، والحروب والغارات؛ هذه الأوبئة كانت تهون على الآباء فلذات أكبادهم، فيتخففون منهم، وكانت الآمال تداعب أخيلة بعضهم فى وصول أبنائهم مع الأيام إلى مكانة مرموقة؛ ولا غرابة!! فقد بلغ بعضهم ما لم يبلغه كثير من أحرار الرجال وعقيلات النساء، ولا أدل على ذلك مما بلغة المماليك؛ فمعظمهم من الفارين من هول الزحف المغولى على بلادهم، حول بحر قزوين، وبلاد القوقاز، بعد أن قضى المغول على آخر معقل حصين فيها، هو «الدولة الخوارزمية» الإسلامية، والتى أبلى آخر ملوكها «جلال الدين منكبرتى» بلاءً حسناً فى الدفاع عنها.

كان المذعورون من الإعصار المغولى المدمر يبيعون أبناءهم، وكان النخاسون بدورهم يعرضونهم فى حواضر العالم الإسلامى..

وقد اشتد بأس المماليك فى عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبى، فقد كانت لهم اليد الطولى فى تثبيت ملكه، وكان لهم البلاء العظيم فى موقعة المنصورة التى انهزم فيها الصليبيون، وأسر لويس التاسع ملك فرنسا فى عام ٦٤٧هـ؛ ومن ثم طمحوا إلى الوثوب على عرش مصر.

والمؤرخون يكادون يجمعون على أن أول من وضع أساس سلطنة المماليك هى: «شجرة الدر زوج الملك الصالح، والذى مات فى أثناء المعارك الناشبة بينه وبين الصليبيين فى المنصورة، وقد أخفت خبر موته عن ال

جيش أبان الحرب، فلما أسفرت الحرب عن هزيمة الإفرنج، وحضر «طورانشاه» بن الملك الصالح، ليعتلى منصب أبيه، قتله المماليك، بالتآمر مع شجر الدر: وتقدمت شجرة الدر الداهية للملك، وخطب لها، وسكت باسمها النقود؛ وتمكنت بدهائها أن تحكم ثمانين يوماً، فقد اشتدت عليها المعارضة، فالخلافة العباسية ـ التى كانت تلفظ آخر أنفاسها ـ استنكرت تولى امرأة شئون مصر والشام، وخرجت الشام على طاعتها، وكره المماليك فى مصر أن يكون الحكم فى يد امرأة: فهداها دهاؤها إلى الزواج من «أتابك العسكر» «قائد الجيش» عز الدين أيبك، وتنازلت له عن السلطة مكتفية بالسيطرة عليه سنة ثمان وأربعين وستمائة للهجرة.

لقد جنى الأيوبيون على أنفسهم باتباعهم سياسة استخدام الأرقاء الأجانب ما جناه بنو العباس، كما تدين تدان، فلم يكن للماليك البحريين ـ الذين كان أكثرهم من الأتراك ـ واعظ من موقفهم من سادتهم

الأيوبيين، وابتلاعهم دولتهم، فقد لجوا فى تقليد سادتهم، واستكثروا من المماليك الجركس، واتخذوهم دروعاً، فكانت نهايتهم على أيديهم.

ويجدر التنويه بأن الظاهر بيبرس قد أعاد الخلافة العباسية فى القاهرة، واجهة إعلامية بلا سلطة فعلية، وظلت هكذا حتى محتها الخلافة العثمانية فى سنة ٩٢٣هـ.

ولم يكن الحكم فى المماليك وراثياً، إنما كانت الغلبة للكاسر؛ وكثيراً ما كان المملوك يقوم فى وجه سيده وينتزع منه الحكم. ولا عجب أن تكون هذه الحياة حياة قلق واضطراب ودسائس وفتن وحروب داخلية، تضيع فيها مرافق البلاد، وتعطل مصالحها الحيوية. والشعب المحكوم مأخوذ مطحون مغلوب على أمره، انتابته الأدواء، وأثقلته الضرائب. يقول ابن القاضى شهبة[1]:

رمتْنا صروف الدهر منها بسبعة ∴ فما أحد منا من السبع سالمُ
غلاء، وغازان، وغزو، وغارة ∴ وغدر وإغبان، وغم ملازم

ويقول البهاء زهير الذى خاب أمله فى الدولة المملوكية[2]:

دولة كم قد سألنا ∴ ربنا التعويض عنها
وفرحنا حين زالت ∴ جاءنا أنحس منها

لما كان فيها من الفساد فى الإدارة، ومن الظلم فى الرعية.

لقد أفلح المماليك ـ عامة ـ فى تطهير مصر والشام من بقايا الغزو الأوروبى الصليبى، وصدوا إلى الأبد جيوش المغول المخيفة التى قادها

(١) كتاب السلوك للمقريزى ١/٤٣. وغازاه: داهية من دواهى سلاطين التتر وقادتهم.
(٢) الديوان ص ٢٨٨.

هولاكو وتيمورلنك، وبذلك مهد المماليك لهذه البلاد سبيل التنعيم بثقافة متصلة، وأنظمة سياسية مستمرة، لم تتحقق لأى بلد إسلامى خارج الجزيرة العربية.

ومع أن المماليك كانوا ـ بوجه عام ـ دون ثقافة، وقساة وسفاكى دماء، فإن عنايتهم بالأمور الدينية والفن والعمارة كانت تضارع عناية أية دولة متحضرة، وهذه أمور تشهد بدورهم البناء، إذ ينبغى ألا يغمط الفضل. ولولا فداحة الظلم وجسامة الضرائب وتوالى الاضطرابات لكانت النهضة أوسع وأرفع. وأخيراً قام السلطان «سليم الأول العثمانى» فغلبهم على أمرهم، إذ استولى على حلب بعد معركة «مرج دابق» التى هزم فيها «قانصوه الغورى» فى سنة ٩٢٢هـ، ثم استولى على مصر، بعد قتل «طومان باى» فى سنة ٩٢٣هـ ١٥١٧م وبذلك سقطت آخر الدويلات المحلية التى نشأت على أنقاض الخلافة العربية، ومهد السبيل لقيام خلافة جديدة غير عربية، هى خلافة الأتراك العثمانيين، فقد دخلت مصر والشام تحت سيطرة العثمانيين، كذلك خلع السلطان سليم الأول «الخليفة العباسى: المتوكل على الله» وانتقلت الخلافة من العرب إلى الأتراك، إذ بويع للسلطان سليم خليفة على المسلمين، وأصبحت العاصمة «القسطنطينية» وامتد سلطان العثمانيين إلى سائر البلاد العربية، كالعراق والحجاز واليمن وتونس والجزائر، ثم اتسعت امبراطوريتهم فشملت سائر البلاد الإسلامية، وتحولت لغة الدولة الرسمية عن العربية إلى التركية[1].

---

(١) راجع الأدب فى العصر المملوكى. د. محمد كامل الفقى. عصر سلاطين المماليك د. محمود رزق سليم. المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى د.فوزى محمد أمين، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكى. د. محمد ماهر حمادة وغيرها.

الحلقة الخامسة

الحياة الاجتماعية

فى ضوء التاريخ والأدب

تبدلت وجوه الحياة فى عصر المماليك تبدلاً كبيراً، فقد اتسم المجتمع بالسمات التالية:

* القلق والتدهور وعدم الاستقرار، فى مختلف مناحى الحياة، وكان عرضة للغزو والقتل والتعذيب والتدمير، وأدى ذلك الاضطهاد إلى: ضعف تماسك المجتمع، وكثرة العروق واللغات، والملل والنحل فيه، واستحكام العداء بين الحكام والمحكومين، واستكان الشعب تحت نير الظالمين وسياطهم؛ وهذه سنة عهود الاضطهاد والفتن، ففيها تضعف الأخلاق الجماعية الفاضلة، إذ كانت مجازر الظالمين ودسائسهم تعملان لإسكات كل قلب متوثب، حتى غابت من نفوس القوم كل حمية، وصمتت الأقلام المناضلة، وجف مدادها، وانطفأت العقول المبدعة، إلا ما كان من الخفقات الضئيلة والأنشودات الخافتة، التى تصل بين الحين والحين حزينة مضطربة، ترددها أفواه بعض الشعراء والكتاب.

وقد دعا بعض الشعراء على الملك الصالح الذى أنشأ المماليك وأمرهم بديار مصر، فقال[1]:

(١) انظر: النجوم الزاهرة ابن تغرى بردى ٦/٣١٩.

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ∴ تُرك بدولته ياشرَ مجلوب
قد آخذ الله أيوبا بفعلته ∴ فالناس كلهم فى ضر أيوب

فالمماليك قد اعتبروا أنفسهم أرباب النعيم وأخدان الرفاهية، ولا معقب لما يرون، ولا راد لما يحكمون، يقول ابن النجار المجود (جمال الدين)(١):

لنا المريحان من علم ومن عدم ∴ وفيهم المتعبان: المال والغشم

وغدا الشعب لذلك مطحوناً، مهيض الجناح، محطم النفس مقهور الإرادة، لا يستطيع الإطاحة بقيوده وأغلاله التى يرسف فيها، لرهبة الحاكم «المملوكى» وجمْعه أسباب القهر والعسف فى يديه من جهة، وللروح الدينية الفطرية عند الشعب المصرى من جهة أخرى، هذه الروح التى جعلته يتحمل كل شىء فى سبيل عقيدته ودينه والحفاظ عليهما، إذ كان يحس أن دينه وعقيدته مهددة بالمغول الذين لا خلاق لهم من جانب، وبالأوربيين الصليبيين من جانب آخر. لهذا استكان لهؤلاء الذين يدافعون عن الدين.

والمماليك بمكرهم ودهائهم وضعوا أيديهم على مفتاح شخصية المصريين، فبهروهم بالدفاع عن حياض الإسلام، وبناء المساجد والمدارس، وتدريس العلوم الدينية، ليغمدوا سيف ثورتهم. وكبت المصريون غيظهم فى نحورهم، واستنزف المماليك دماءهم، وتمتعوا بخيراتهم دونهم.

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ج١، والعبر فى أخبار من غبر لابن حجر ج٥ الوافى بالوفيات للصفدى ج٥.

وقد ساءت الحالة الاقتصادية فى دولة المماليك البرجية، حيث أضحى زمام الاقتصاد فى يد القبط، حتى قال الشاعر شهاب الدين بن ساعد السعدى (٧٨٥هـ) فى المغانم الاقتصادية المقسمة بين المماليك (البحرية والبرجية) وبين القبط:

وكيف يروم الرزق فى مصر عاقـــل

ومن دونه الأتراك بالسيف والتُّرس؟!

وقد جمعته القبط مـــن كـــل وجـــهة

لأنفسهم بالـــربع والثـــمن والخـــمس

فللترك والسلـــطان ثلـــث خراجـــها

وللقبط نصف، والخلائق فى الســدس

* انصراف العرب عن الأمور السياسية، والحربية، إلى الزراعة والصناعة والتجارة والعلم والأدب، وقيام المماليك بأعباء السياسة والحرب.

* اعتماد المماليك فى الحكم على القوة والدسائس التى يحيكها بعضهم لبعض، وقد سجل ابن الوردى هذه الصورة القاتمة فى قوله(١):

هذى أمور عظـــــام ∴ من بعـضها القلب ذائب

ما حال قـــطر يليـــه ∴ فى كل شـــهرين نائب؟!

كما سجل هذه الظاهرة فى صورة ساخرة فقال:

---

(١) انظر: تاريخ ابن الوردى ٢/٣٤٧.

كـــم ملك جـاء وكم نـــائب ∴ يا زينة الأسواق حتى متى ؟!

قد كرر الزينة حـتى اللحى ∴ ما بقـيت تلحـــق أن تنـــبتا

* تمثل فى المماليك ازدواج الشخصية، فقد كانت لهم شخصيتان: شخصية عامة، وشخصية خاصة، إذ جمعوا بين الصلاح - فى نظر الشعب - والاستمساك بقواعد الدين الحنيف، من صلاة وزكاة وتشييد العمائر الدينية، وغير ذلك، بينما كانوا فى حياتهم الخاصة لا يتورعون عن إتيان أشنع المنكرات، والتعسف فى أذى الخلق، وإهراق الدماء؛ وإنا ندهش حين نقرأ ما كتبه ابن إياس (بدائع الزهور ١/١٥٥) عن ثروة «سيف الدين سلار» وزير السلطان بيبرس الجاشنكير (ت ٧١٠هـ) «فقد بلغت مئات ملايين الدنانير الذهبية، ومئات القناطير الفضية، وكميات هائلة من المعادن الكريمة، والملابس الرفيعة» وتساءل المؤرخ عن مصدر هذه الثروة؟ ومتى جمعها؟ وهو لم يمكث فى الوزارة سوى أحد عشر عاماً؟! وأجاب عن ذلك بأنه إما: ظفر بكنز من كنوز القدماء، وإما أنه أخذها من خزائن بيت المال سرقة واغتصاباً.

والعجب أن هذا السلب يحدث فى زمن اشتدت فيه الأزمات، وكثرت المجاعات.

* إثقال كاهل الشعب بالضرائب، التى كان فيها كثيرٌ من العسف والظلم والجور، وكان جُباة الضرائب يصبون جام الغضب على الناس لإجبارهم على دفع ما يفرضون، ويتفننون فى ألوان تعذيبهم لاستخراج الأموال منهم.

فى الوقت الذى كان الحكام يُقطعون ذوى القربى والمقربين الإقطاعات، لقد كانوا ينظرون إلى طبقات الشعب نظرة ازدراء واحتقار، وكانوا ـ من هذا المنطلق ـ يطلقون على العامة كلمة «فلاحين» وتعنى عندهم المهانة والاحتقار[1] وقد صور البوصيرى ذلك فى رائيته التى منها[2]:

والمال يجبى كما يجبى الثمار بها .·. حتى كأن بنى الدنيا لها شجر

والعاملون على الأموال ما علموا .·. من أى ما جهة يأتى وما شعروا

وابن دانيال فى لاميته التى منها[3]:

صاح لولا عناء قبض الغلال .·. ما قبضنا فى هذه الأغلال...

هو قبض لكنه قبض قلب .·. وهو شغل لكنه شغل بال..

وقول «الشار مساحى» فى سينيته التى منها[4]:

يموت عديم القوت بالجوع حسرة .·. ويشبع بالأوقاف أهل الطيالس

فما أحد إلا وحشو حسابه .·. من الغبن نار دونها نار فارس!!

* المعاناة وتجرّع الغصص من الجرائر التى استشرى خطرها، من تفشى الرشوة والمتعة بالنساء والغلمان، وعلى الأخص غلمان التتار ـ أسرى الحروب والذين كانوا يقيمون فى (حى الحسينية) بالقاهرة وعرفوا بالملاحة والفتنة، فهام بهم أمراء المماليك وعِلْيتهم، وجعلوهم محل شهوتهم وأُنْسِهم، وتغزلوا فى مفاتنهم، واستشرى هذا الداء الوبيل، فتمكن

---

(١) انظر بدائع الزهور ج٤ حوادث ربيع الثانى عام ٩٢٠هـ.

(٢) الديوان ص ٩٣ وما بعدها.

(٣) التذكرة الصفدية ٨٧/١٤.

(٤) شهاب الدين الدين الكنانى، المتوفى سنة ٧٢٠هـ، الدرر الكامنة ١٧٢/١.

من النفوس العفيفة، حتى أضحى ظاهرة اجتماعية يقول المقريزى: «فصار أهل الحسينية يوصفون بالحسن والجمال البارع، وأدركنا طرفا جيداً وكان للناس فى نكاح نسائهم رغبة، ولآخرين شغف بأولادهم، ولله در الشيخ تقى الدين السروجى (٦٩٣هـ) إذ يقول:

يا ساعى الشوق الذى قد جرى ∴ جرت دموعى فهى أعوانه

خذلى جوابا عن كتابى الذى ∴ إلى الحسينية عنوانه

فهى كما قد قيل وادى الحمى ∴ وأهلها فى الحسن غزلانه[1]

* تَفَشَّي ظاهرة شرب الحشيش والخمر، وقد نظم فيها الشعراء، وفى أقداحها ومجالسها شعراً كثيراً، ومنه ما قال مجير الدين الإسعردى فى قدحه بعد ما نكسر:

أيا قدحا صدع الدهرُ شهله

فأصبح بعد الراح قد جاوز الثريا

سأبكيك فى وقت الصبوح وإننى

سأكثر فى وقت الغبوق لك الندبا

وإن قطّبت شمس المدام فحقها

لأنك كنت الشرق للشمس والغربا[2]

---

(١) الخطط ج٢ والسلوك ٨١٣/١٢.

(٢) الشطر الثانى من البيت الثالث تضمين من قول المتنبى:

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا ∴ فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

والشمس عند الإسعردى تعنى: الخمر، كأنه يقول: كانت الخمرتشرق من القدح وتغرب فى أفواهنا.

ويقول الشاب الظريف (محمد بن سليمان) وهو من أنصار الخمر:

ما فى الحشيشة فـضل عـند آكـلها .·. لكـنه غـير مصـروف إلى رَشَــدِهْ

حمراء فى عينه، خضراء فى يـــده .·. صفراء فى وجهه، سوداء فى كبده

بينما يقول ابن الأعمى الدمشقى، وهو من المخدورين وأنصار الحشيشة:

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر .·. معْبَرةٍ خـــضَــراء مثـل الزبرجــد

هى البكر لم تُنكح بمــاء سحابــة .·. ولا عصرت يوما برجل ولا يـــد...

ولا عبث القسيس يوما بكأســـها .·. ولا قربـــوا مـــن دنَهـــا كل مقعـــد

وكانت أقوال الشعراء فى الخمر تقليداً لشعراء العبـاسيين بعامة ولأبى نواس بخاصـة. إلى جانب ظاهرة السرقـة، والبغـاء، والتنجيم والمنجمين، بيد أن ظواهر الفساد الاجتماعى التى أناخت بكلاكلها على صدر المجتمع المصرى فى عصر المماليك، كان بعض سلاطينهم قد أسهم فى ذيوعهـا؛ ولسوف يسأل عن ذنبه رجريرته يوم العرض على قيوم السموات والأرض؛ ومنهم من حاربهـا وناصبهـا العداء، كالظاهر «بيبرس» الذى ألهب أهل الفساد بسياطه وتعقبهم، ومنع الحشيش والخمر، وقد شرع نفر من الشعراء يتفكهون فى التندر على هذا المنع، فهذا ناصر الدين بن النقيب (٦٨٧هـ) يقول:

منع الظاهرُ الحشيشَ مع الخِمــــر .·. فـولـَى إبليس مـن مصر يسعى

قـــــال: مالــى وللمقــام بــأرض .·. لم أمتَّع فـيـها بماء ومرعى!!

ومن السلاطين الذين وقفوا بالمرصاد للملامح الاجتماعية المرذولة «الناصر محمد بن قلاوون» الذى أبطل حانات الغوانى، وهدم نظام بيوتات البغاء.

ولما كان لكل فعل رَدّ فعل، فقد شهد العصر المملوكى ردود فعل قوية للتيار الماجن، لأنه إذا ما استشرى الفساد الخُلقى فقد تبعه ظهور أناس انطووا على أنفسهم، ليقضوا الحياة فى زهد وانتظار للموت، وأمعنوا فى الزهد حتى استحالوا كُتَلاً تدّعى الصوفية والزهد، قليلاً ما تكون صادقة فى اتجاهها.

ومن ثَمّ فقد شهد العصر ظواهر اجتماعية متباينة تبايناً قوياً، فمن مجون وفسق إلى زهد وتقشف.

وكان للأدب دوره فى تصوير هذه الحياة القاسية المتباينة المضطربة بمباذلها وتقشفها(*).

وواحرّ قلباه!! إن بعض الشر أهون من بعض، لقد كان شر العثمانيين فى البلاد العربية مستطيراً، فقد قضوا على الحرية الشخصية، وعاث جنودهم فى الأرض فساداً، وجنوا على ما ظهر فى مصر من حضارة، كان يمكن أن تكون استمراراً لحضارة بغداد، كما جنوا على زعامتها السياسية والعمرانية فى البلاد الإسلامية..

(*) انظر فى هذا المبحث إلى جانب ما تقدم: اللذين أدركتهم حرفة الأدب للأستاذ طاهر أبو فاشا، عصر سلاطين المماليك؛ المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى.. وغيرها كتاريخ الأدب العربى د. عمر فروخ.

فرجعت البلاد فى عهدهم القهقرى، واعتلت مواردها، وتكاثرت ضروب الإحن والفتن والفساد، وخفت صوت العدل، وخبا ضوء العقل..

إن إساءات المماليك تهون إذا ما قيست بجرائر العثمانيين، فالضد يظهر حسنه الضد، والشىء يعرف إذا ما يذهب..

لقد أساء العثمانيون الذى لم يحسب لهم إلا القوة العسكرية، فضيّعوا وأضاعوا، وفرّطوا وأفرطوا؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كانت نهاية العصر العثمانى بدخول جيش فرنسا مصر فى سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة للهجرة، ألف وسبعمائة وتسعين وثمان للميلاد (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م).

الحلقة السادسة

الحياة الثقافية

دوافع نهضتها وأفياؤها وآثارها ووجهتها

لم تنطفئ مصابيح الثقافة العربية والإسلامية تماماً، بالفتن الحالكة التى أطبقت على بغداد، فقد أراد الله أن يحفظ لغة كتابه وعلومها على رغم الغاديات، فكانت مصر الحِمَى والمسترداد والمستقر، وكان الأزهر المنارة والرسالة والأصالة والمحراب، وكان المماليك الرِّدْء والوَزَر والعضد؛ ومن ثم قامت نهضة علمية مباركة، حدّ المماليك فى إحيائها، ونشطوا فى إنمائها، وتنافسوا فى إذكائها، فكان لهذه النهضة الفضل فى بقاء العربية مزدهرة، وفى بقاء العلم حياً، وفى بقاء الأذهان على نشاطها، وفى استمرار الحركة الفكرية، وكيف لا وقد دُوِّنت طائفة من الكتب هى اليوم مراجع فى اللغة وآدابها وتاريخها وتاريخ رجالها وعلومها وعلوم الدين وغيرها؟! ومن قِبْل المماليك كان الفاطميون والأيوبيون قد ضربوا لهم المثل الصالح، وقدموا القدوة الحسنة فى ميدان العلم وتشجيع أهله، فسلكوا سبيلهم وترسموا خُطاهم. وسواء علينا أكان المماليك مدفوعين إلى معاضدة العلم ورجالاته بدافع إيمانى، ورغبة خالصة، أم بدافع حب الظهور وجميل الأحدوثة، أم بدافع الرهبة من الشعب، والخوف من انتفاضته فى مواجهة مظالمهم، فلابد من الاعتراف بإيجابيات هذا التوجه؛ ولابد من الاعتراف بفضل المماليك أيضاً فى المحافظة على

استقلال البلاد ضد المعتدين، مغولاً كانوا أو صليبيين؛ وإلا فإننا نتجنى على الحقيقة؛ ولا ريب فقد كان منهم الصالح والطالح!!

جرى كثير من مؤرخي الأدب على نظم العصور التى تلت نكبة بغداد فى سلك الضعف الثقافى والانحطاط الأدبى والانهيار الفكرى[١] نافخين فى أبواق الشّعوبيين والمبغضين والمارقين، الذين يتلمّظون غيظاً من العصر المملوكى وفرسانه، وتطفح قلوبهم حقداً ضد العصر وشجعانه.

وهذا الحكم – فى نظرى – حكم جائر على العصر المملوكى لا يصدق، لما لهذا العصر من أيادٍ لا تجحد على العلم والأدب، فقد ازدهر فيه العلم، وتماسك الأدب، فلم ينحدر إلا فى العصر العثمانى، إذ انطفأت فيه مصابيح الأدب، وأقفرت أنديته من الحركة والحياة وانحسر مد الحضارة والثقافة، وخمدت الحركة العقلية، ولاقى العلم والأدب فيه انحطاطاً لم يعهداه فيما أدركا من عصور؛ ولولا بقية بصيص لتسيد الجهل وطغى التخلف على الناس طغياناً يكاد يكون تاماً.

ومن الجور أن نَسِمَ العصر المملوكى بالانحطاط، فالحق أحق أن يُتبع، والإنصاف أولى ما حرص عليه..

ازدهرت فى ظلال المماليك نهضة ثقافية مباركة، واسعة النطاق، طيبة الجنى.. تبلجت دوافعها وتعددت مراكزها وأفياؤها، وفاضت

---

(١) كالأستاذ محمد أسعد طلس والدكتور جودت الركابى اللذين أطلقا عليه عصر الانحدار، وعنونا كتابيهما بهذا الإطلاق وهذه الوصمة. والدكتور عمر فروخ الذى جعل الانحطاط فى العصر قاصراً على الأدب (تاريخ الأدب العربى الجزء الثالث) والدكتور بكرى شيخ أمين الذى رمى أدب العصر بالضعف وإن لم يصغ ذلك فى حكم عام (مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى).

مظاهرها، ونصعت وجهتها. نجمل القول فى دوافع هذه النهضة وعواملها فى النقاط التالية:

* التشجيع المستمر للعلم وأهله من المماليك، وبخاصة من كان منهم على جانب طيب من العلم والمعرفة، من أمثال: الظاهر بيبرس وآل قلاوون والمؤيد شيخ وقايتباى وقانصو الغورى.

* ميل السلاطين المماليك إلى الأخذ بناصر العلوم والآداب - رغبة أو رهبة.

* جدّهم فى اجتذاب قلوب المسلمين برعايتهم للدين والعلم؛ وحرصهم على تخليد ذكرهم بمآثرهم وآثارهم، وحملهم العلماء على التصنيف والتأليف وتتويج المؤلفات بأسمائهم.

* إحساس العلماء - مصريين وشاميين وحجازيين ووافدين - إزاء الكارثة المروّعة التى حاقت بالأرض العربية الإسلامية على أيدى التتار، بالمسئولية أمام الله والتاريخ عن إنهاض العلم من كبوته وإقالة عثاره.

* اندفاع العلماء فى غمرة الشعور بالمسئولية والواجب الإنسانى إلى الجد والعمل لتلافى ما دُمِّر، وبذل الجهد لإعادة الصرح الثقافى المنهار.

* المنافسة الشديدة الشريفة بين علماء مصر والشام فى ساحة العلم والتأليف والتدوين.

أما الحديث عن مراكز الثقافة وأفيائها فذو شجون، ولكنا نحاول الإيجاز والتركيز ما أمكننا. لقد تنوعت هذه المراكز والأفياء بين: المساجد

والمدارس والمكتبات وخزائن الكتب. وآثار المماليك فى هذا الميدان شاهدة لهم، دالة عليهم؛ وكم كانوا يتنافسون فى إنشائها والعناية بها!! وخلد ذكرهم فى التاريخ بها؛ ولم تخل أيام واحد منهم من بناء جامع فيه مدرسة، أو تشييد مدرسة، أو خزانة كتب.. وفى ذلك يقول ابن أبى حَجْلة المغربى الشاعر[١]:

لسنا وإن كرمت أوائلنا ∴ يوما على الأحساب نتكل

نبنى كما كانت أوائلنا ∴ تبنى، ونفعل فوق ما فعلوا

عنى المماليك بالمساجد الناهضة بالرسالة الدينية والعلمية، فهى المعابد والمعاهد معاً، فمنها تشع أنوار العبادة والمعرفة؛ ولم يقتصر التدريس - فى الغالب - فى هذه المساجد على علوم الدين، بل امتد إلى فروع علمية مختلفة كالنحو والشعر والأدب والفلك والحساب، والطب أحياناً[٢].

من أشهر المساجد التى كان لها أثرها فى نشر العلوم والمعارف، والتى كانت موضع اهتمام المماليك، جامع عمرو بن العاص، وفيه يذكر المقريزى: أن حلقات إقراء العلم لا تكاد تبرح منه.

وجامع أحمد بن طولون الذى كان يدرس فيه الطب إلى جانب تدريس العلوم الدينية.

---

(١) تاريخ إياس ٢/٢٠٤.

(٢) انظر خطط المقريزى ٢/٣٦٣ وحسن المحاضرة للسيوطى ٢/١٣٨.

والأزهر(*): الجامع والجامعة، تاج المنشآت العلمية، الذى أفنى القرون جداره، ومضى على هام الزمن ينشر العلم ويزجى الأدب، ويجذب بإشراقه إليه أفئدة العالمين، ويرتد على صخرته كيد أعداء الله، ثمرة طيبة المذاق من غرس المعز، وهو أشهر معاهد العلم على الإطلاق، ولم يفقد شهرته إلى يومنا هذا، فقد كان المدرسة الأولى التى تخرج العلماء والأدباء، والتى حافظت على التراث العربى الإسلامى، وكانت المنارة التى تشع نوراً وهدى وحكمة.

والأزهر هو الذى حفظ العلوم الإسلامية واللغة العربية من الاندثار، وحفظ للأدب العربى رونقه وبهاءه، وما يزال حتى اليوم كعبة العلوم والآداب، ومعقد آمال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، ولم يكن الأزهر مقصوراً على أهل مصر فحسب، بل كان الطلاب المسلمون يفدون إليه من جميع بقاع العالم، وأخذت هذه الصلة تقوى بين الأزهر والبلاد الإسلامية حتى أضحى فى العصر العثمانى مأوى المسلمين وحصنهم الحصين فى كافة بقاع الإسلام؛ وما يبدو فى عصرنا الحاضر من ميل الشعوب حتى القاصية منها كأهل الصين والهند وأوروبا، إلى الوفود إلى الأزهر والانتساب إليه، والارتشاف من مناهله، ليعيد إلى الأذهان ذكرى ذلك العهد الزاهر الماضى، ويبشر بمستقبل ميمون.

(*) أنشأه جوهر الصقلى بأمر المعز لدين الله الفاطمى. استغرق بناؤه من (٦ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ إلى ٧ من رمضان سنة ٣٦١هـ) وأصبح المسجد الرسمى للدولة، ثم صار الأزهر معهداً جامعياً للعلم والدراسة منذ سنة ٣٧٨هـ بما النهجة يعقوب بن كلس الوزير، وأقره عليه المعز، وغالى الأيوبيون فعطلوا الدراسة والخطبة ف بالأزهر نحو مائة عام، ثم عاد ينشر نوره فى عام ٦٦٥هـ أيام الظاهر بيبرس.

عاشت حلقات الأزهر خلال الأجيال الماضية، تحمل عن العالم الإسلامى رسالة الإسلام الروحية والدينية والثقافية، وتؤديها ناصعة بيضاء كخيوط الفجر، مشرقة هادية كضوء الشمس.

هذا هو الأزهر أعرق الجامعات العلمية، وأجلها أثراً فى تاريخ الفكر العربى الإسلامى، بل فى تاريخ العالم كله؛ ولقد كان الأزهر طوال عصور التاريخ حارس التراث العربى وحامل مشعل الثقافة الدينية، والملاذ الذى تهوى إليه الأفئدة من كل مكان، والضوء الذى يبصر المسلمين سواء السبيل.

وكان الجامع الأموى بدمشق جامعة عامرة بشتى العلوم والفنون. وكان للعلماء الذين يقصدون الحرمين الشريفين أثر واضح فى نشر الثقافة الإسلامية وتفسير القرآن ورواية الحديث وشرحه.

أما المدارس.. فالمؤرخون يكادون يجمعون على أن أول من بنى المدارس فى الإسلام نظام الملك الطوسى، وزير ملكشاه السلجوقى فى أواسط القرن الخامس الهجرى، وقد نسبت إليه هذه المدارس، فعرفت «بالمدارس النظامية»، واقتدى به الناس.

وكان نور الدين محمود زنكى أول من بنى مدرسة فى دمشق، ثم عمم المدارس فى مدن مملكته وقراها. وجاء المماليك فساروا على سنته، ونشروا المدارس فى مختلف البلاد التى حكموها؛ وآثارهم فى مصر والشام والحجاز شاهدة باحتضانهم لألوان المعرفة، والمدارس التى بنوها فى هذه الأمصار شاهدة بفضلهم. حقاً لقد تنافس المماليك فى بناء قلاع

العلم، التى أضحت خلايا تزخر بالطلاب الذين يفدون إليها من كل صوب وفج.

وكان من وجوه عناية المماليك بدور العلم تجديد ما سبق بناؤه منها، وفى طليعة ما أنشئ منها:

المدرسة الظاهرية: التى بناها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ وكانت بها مكتبة عظيمة القيمة جليلة القدر؛ وقد أنشد أبو الحسين الجزار الشاعر (ت: ٦٧٩هـ) فى الاحتفال المهيب بافتتاح الظاهرية قصيدته التى منها[١]:

ألا هكذا يبنى المدارسَ من بنى ∴ ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا

لقد ظهرت للظاهر الملْك همة ∴ بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنى

تجمع فيها كل حسن مفرق ∴ فراقت قلوبا للأنام وأعينا

والمدرسة المنصورية: التى بناها المنصور قلاوون، وبها مدرسة للطب، ودار للعلاج.

والمدرسة الشيخونية: بناها الأمير شيخون (ت: ٧٥٦هـ) وهى مدرسة هائلة، جمعت المذاهب الأربعة ودارا للحديث، وخانقاه للصوفية[٢].

ومدرسة السلطان حسن بالقلعة: بناها للمذاهب الأربعة سنة ٧٥٨هـ،

---

(١) راجع حسن المحاضرة الجزء الثانى، وكتاب السلوك.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٢٥٨.

وهى تشتمل على أربع مدارس، وقيل: إن إيوانها بُنى على قدر إيوان كسرى أنوشروان فى الطول والعرض.

والمدرسة البرقوقية، والمدرسة المؤيدية.

هذه إشارة إلى جمهرة المدارس فى القاهرة، فضلاً عن مدارس الإسكندرية وجوامعها، ومدارس الصعيد، وبخاصة قوص وأسيوط، ومدارس بلاد الشام والحجاز، كالمدرسة التى بناها «قايتباى» فى مكة المكرمة سنة ٨٨٢هـ.. وقد نهض العلم فى ربوع هذه المدارس وراجت سوقه.

وعنى سلاطين المماليك كذلك بجمع الكتب وتنظيمها سعياً إلى تيسير الاطلاع عليها والانتفاع بها، فهى أوعية المعارف وسبل الثقافة. فكثرت المكتبات العامة. فكان فى مدينة القاهرة وحدها أربع عشرة مكتبة، كما يقول المقريزى، وفى كل مدرسة من مدارس الشام خزانة كتب، كالمدرسة العمرية، والعادلية، والأشرفية، كما يقول كرد على[1].

وذخرت مكة المكرمة والمدينة المنورة بالمكتبات النفيسة.

وقد قامت إلى جانب هذه المكتبات العامة مكتبات وخزائن خاصة عند كثير من الأمراء والعلماء ومن لهم شغف بالعلم، وكانت تضم نفائس الكتب، كمكتبة الناصر حسن.

وكان اهتمام الناس بالكتب أمراً يسترعى الانتباه، فالقاهرة غاصة

---

(١) خطط الشام ١٩٥/٦.

بأسواق الكُتبْيين احترقت بدمشق سنة ٦٨١هـ، واحترق فيها لواحد من الكتبية وهو شمس الدين إبراهيم الجزرى خمس عشرة ألف مجلدة سوى الكراريس(١).

لقد أشربت قلوب الناس ـ فى العصر المملوكى ـ حب العلم، وسرت روحه إلى أفئدتهم، وراحوا يتنافسون فى طلبه، وينهلون من موارده، ويغترفون من معينه، حتى قال أحد شعرائهم (الشريف النيسابورى، ت: ٧٧٦هـ)(٢):

هذّب النفس بالعلوم لترقى ... وترى الكل وهو للكل بيت

إنما النفس كالزجاجة والعقـ ... ـل سراج وحكمة الله زيت

فإذا أشرقت فإنك حى ... وإذا أظلمت فإنك ميْت

ويجب ألا ننسى جهود العلماء فى إعادة تشييد الصرح الثقافى، الذى محته يد البلى بمعاول التتار، وتضافرَ هؤلاء الأعلام الغيورون فى التأليف والتصنيف، وتنافسهم فى هذا الميدان الذكى الزاكى الطيب ـ الذى أرجو أن يكون لهم فى موازين حسناتهم ـ حتى ازدهرت العلوم، وانبعثت الآداب، وظهرت أعظم الآثار العلمية والموسوعات الأدبية، وبلغت المؤلفات ـ فى هذا العصر ـ عشرات الآلاف؛ وعرف أن من العلماء مَنْ ألَّف وحده مئات من الكتب كابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) والسيوطى (ت:٩١١) طيب الله ثراهما..

---

(١) الخطط ٢/٢٥٥.

(٢) انظر الأدب فى العصر المملوكى د. محمد زغلول سلام ١/١٠٨.

وإذا كانت دور العلم قد فاضت بالطلاب، وتنوعت فيها الدراسة بين العلوم المختلفة، فإن المكتبات قد فاضت بالكتب والمؤلفات، وعوضت العربية شيئاً من تراثها الذى هلك وباد. نهضة ثقافية رائعة، يكبر التاريخ همة رجالاتها وعزيمة فرسانها.

وثَمّت حقيقة تتعلق بوجهة هذه النهضة المباركة، وهى: أنه كان للعلم فيها الحظ الأوفر والقدح المعلى، بينما كان سير الآداب فيها حثيثاً، ولكنه فى مجرى ضيق بالقياس إلى مجرى العلوم الواسع المتدفق؛ فقد كانت هذه النهضة إذن علمية أكثر من كونها أدبية، على عكس ما كانت عليه فى ظلال الأيوبيين؛ ولعل مردّ ذلك إلى أن الأدب لم يكن قد استكمل ـ بعد ـ عوامله التى تدفعه إلى درجة الكمال. أو لعل ذلك كان ضرورة من ضرورات العصر. والأهم أن صدور العلماء كانت أكثر فيضاناً بالغيرة الدينية، بيد أن هذه النهضة تفسر لنا كيف يزدهر العلم متى وجد من أهله همة عالية، ومن الحكام اهتماماً رائعاً؛ وهو فى هذه الحال لا يبالى أكان راعيه عربياً أم أعجمياً.

حتى إذا ما فتح العثمانيون مصر (٩٢٣هـ) نهبوا ذخائر البلاد ونفائسها، وفى طليعتها تلك المؤلفات، فحملوها فيما حملوا إلى عاصمتهم، وجمّلوا بها دور كتبهم؛ ولم يبق فى مصر إلا بقية باقية من هذه الذخائر، فكانت نواة لإنشاء دار الكتب المصرية فى عهد الخديوى إسماعيل[١].

---

(١) انظر الأدب فى العصر المملوكى للدكتور محمد كامل الفقى ص ٥٥.

الحلقة السابعة

حـركة التأليـف

نشطت حركة التأليف فى عصر المماليك أيما نشاط، فظهرت كتب جامعة فى كل علم، وموسوعات تضم لفيفاً من العلوم؛ حتى عرف العصر بعصر الموسوعات. فقد شمر العلماء عن ساعد الجد فى جمع المتفرق من الكتب، التى بقيت من يد الفناء، ولمّ الشتات؛ يحدوهم.

الخوف والحرص على ما بقى من الكتب.

الشعور العميق بالحاجة إلى كتب تسد مكان الكتب التى تلفت.

وانطلقوا يؤلفون ويصنفون، مستعينين فى تأليفهم بالكتب التى نجت من الدمار، وبما كانت ذاكرتهم لا تزال تعيه.

فخلفوا للعلم والأدب ثروة طائلة، ومؤلفات جمة، أربت على مثيلاتها فى مختلف العصور.

وقد تناولت هذه النهضة كثيراً من العلوم الشرعية والعربية، والتاريخ والتراجم وتقويم البلدان، والأدب والقصص، والاجتماع والكونيات، فعوضت الإنسانية والإسلام بعض ما أتلفته معاول التخريب، وكانت هذه المؤلفات الوصلة الصالحة بين الماضى والمستقبل. ولقد اتسم التأليف ـ فى بعض نواحيه ـ فى العصر المملوكى بسمات، أبرزها:

* الجمع والتقليد؛ ولعل هذه السمة تعود إلى المحافظة على العلوم التى ذهبت كتبها، وبقيت فى صدورهم آثارها؛ وهذا إنما يعنى خلاء هذه المؤلفات من التجديد أو الابتكار، غير أن هذا الحكم لا يصدق على جميع المؤلفات، لأن كثيراً منها تألق فيه الإبداع والاختراع فى بعض مواد العلوم وأسلوب التأليف، وبدا فيه الابتكار، وساعد على دفع العصر فى معارج التقدم والنهضة، وليس أدل على ذلك مما يبدو لنا فى مقدمة ابن خلدون، وخطط المقريزى، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومعجم ابن منظور، وتأليف ابن مالك، وابن تيمية، والشاطبى، ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى، ففيها يتألق البحث الصائب والفكر العميق والابتكار والتميزّ العلمى.

* الاختصار والإيجاز، إلى حد الغموض أحياناً، فأُلِّفَت المتون التى جعلت أصلاً، قام بشرحها بعض العلماء، وقام آخرون بشرح الشرح، بما يسمى الحاشية، كما هو الحال فى مفتاح العلوم للسكاكى، إذ لخصه الخطيب، فى تلخيص المفتاح، ثم تعاقبت عليه الشروح. وقد اختصر السيوطى كثيراً من نفائس كتب التراث، كالأحكام السلطانية للماوردى، ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ ابن عساكر.

* استخدام العلماء - فى الأسلوب العلمى أو التأليف - المحسنات البديعية، كالسجع والجناس والتورية، وهو يقلل الفائدة التى يتوخاها المطلع؛ وهذا إنما يشير من جانب آخر إلى: غلبة الأسلوب الأدبى على لغة التأليف.

* تسرب ألفاظ تركية وفارسية إلى اللغة العربية، فيما يتعلق بالألقاب خاصة، في دولة المماليك البرجية، كلفظة «الخواجا»، «زاده» يعني «ابن» و«بك»[1] لقد نبغ في كل علم أعلام، وفي كل فن أفذاذ، وفي كل ميدان جهابذة عماليق؛ ما تزال مؤلفاتهم ملء السمع والبصر.

ففي العلوم الدينية:

كثرت المؤلفات الباحثة في علوم القرآن والحديث والتفسير والفقه والأصول وغيرها، وكثر أعلام هذه الساحة النضرة، يأتي في مقدمتهم المصلح الإمام أحمد بن تيمية (المتوفى ٧٢٨هـ) وله مؤلفات تربى على الثلاثمائة، منها:

فتاواه المشهورة والجمع بين العقل والنقل، ومنتقى الأخبار، وتلميذه ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) ومن مؤلفاته: التبيان في أقسام القرآن، ومرآة الزمان، وشمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ) وهو راوية ومحدث ومؤرخ، وله: تذكرة الحفاظ، والطب النبوي وجلال الدين السيوطي (٩١١هـ) وهو صاحب مؤلفات كثيرة، منها: الدر المنثور في التفسير المأثور، الإتقان في علوم القرآن، ولباب النقول في أسباب النزول، وجمع الجوامع - والقسطلاني (٩٢٣هـ) وله شرح البخاري، والمذاهب الدينية في سيرة الرسول ﷺ.

والمقام يضيق عن ذكر الأعلام والمؤلفات الكثيرة التي تدل كثرتها وتعدد شروحها على اعتناء هؤلاء الأعلام بهذه العلوم.

---

(١) انظر شذرات الذهب ج٧ ص ١٢٧ وما بعدها.

وفى اللغة وعلومها:

ظهرت مؤلفات وموسوعات كثيرة لأفذاذ كُثْر، من أبرزها: لسان العرب لابن منظور الإفريقى المصرى، (المتوفى ٧١١هـ) ويقع فى عشرين مجلداً، وهو موسوعة جامعة فى اللغة والتفسير والحديث والأدب، ويجمع بين تهذيب الأزهرى ومحكم ابن سيده، وصحاح الجوهرى، وجمهرة ابن دريد، والنهاية لابن الأثير؛ وهو يجرى على طريقة (القافية)، وقد تحرى مؤلفه صحة النقل فى مادة اللغة بالمحافظة على نصوص الرواية وتأييدها بالشواهد.

والقاموس المحيط لمجد الدين الفيروزيادى (٨١٧هـ) ويعنى كثيراً بالأعلام والتعريب، ولشهرته ترجم إلى التركية والفارسية، وشرحه كثير من الشراح، وأشهر شروحه «تاج العروس» للزبيدى، والمزهر فى اللغة للسيوطى (٩١١هـ) وهو جزاءان، ومباحثه مما نسميه فى عصرنا بفقه اللغة.

ومن أشهر كتب النحو والصرف ألفية ابن مالك (٦٧٢هـ) وللرجل إلى جانب الألفية: التسهيل والكافية الشافية.

ومغنى اللبيب، وقطر الندى، وشذور الذهب، لابن هشام المصرى (٧٦١) والأشباه والنظائر للسيوطى. ومن أشهر المؤلفات فى علوم البلاغة «تلخيص المفتاح» للخطيب القزوينى (٧٣٩هـ) و«الإيضاح» للمؤلف نفسه، وكتاب «حسن التوسل فى صناعة الترسل» لشهاب الدين الحلبى (٧٢٥هـ) و«عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح» للبهاء السبكى (٧٧٣هـ)

والبديعيات، التى أشهرها: بديعية صفى الدين الحلّى (٧٥٠هـ)، وبديعية ابن حجة الحموى (٨٣٧هـ). وفى التاريخ: اتسع التأليف اتساعاً كبيراً، وخصوصاً فى الطبقات والتراجم، ويتجلى لنا هذا فى كتاب «طبقات الأطباء» لابن أبى أطيبعة (٦٦٨هـ) و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٦٨١هـ) وذيله «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبى (٧٦١هـ) وكتاب «العبروديوان المبتدأ والخبر» لابن خلدون (٨٠٨هـ) وهو مبتكر علم الاجتماع، فله نظرات اجتماعية صائبة. وكتاب «الخطط» للمقريزى (٨٤٥هـ) إلى جانب كتب أخرى كالكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير. والعصر المملوكى عصر التصرف والابتكار فى تدوين التاريخ.

وفى الجغرافيا: كتاب «عجائب المخلوقات» للقزوينى (٦٨٢هـ) و«تقويم البلدان» لأبى الفداء (٧٣٢هـ) ورحلة ابن بطوطة (٧٧٩هـ).

أما فى الأدب: فقد كثرت الموسوعات، والكتب الجامعة لموضوعات مختلفة، إذ كان يغلب على التأليف فى الأدب: الخلط بين الأدب والأخلاق، وبين الأدب والعلوم المختلفة، كالتاريخ والنبات وما إلى ذلك، ولهذا عرفت بالموسوعات؛ ومن أشهرها: كتاب «الغرر» للوطوط (٧١٨هـ) وكتاب «نهاية الأرب فى فنون الأدب» للنويرى (٧٣٢هـ) و«مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمرى (٧٤٨هـ) و«صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» للقلقشندى (٨٢١هـ)، «المستطرف فى كل فن مستظرف» للإبشيهى (٨٢٤هـ)، و«خزانة الأدب» لابن حجة الحموى (٨٣٧هـ) و«حلبة الكميت» للنواجى (٨٤٩هـ).

وشاع فى العصر المملوكى لون أدبى هو «القصص» لشغل الجمهور بما يخفف عنهم أعباء الحياة؛ إلى جانب الأدب «الشعبى» الذى ظهر ظهوراً بيناً؛ وأهم هذه القصص: تكملة ألف ليلة وليلة، وسيرة عنترة، وسيف بن ذى يزن، وأبو زيد الهلالى، والظاهر بيبرس، وهى فى معظمها تدور حول قصص البطولة وأخبار المغامرات. إلى جانب «خيال الظل» لابن دانيال المصرى (ت: ٧١٠هـ).

ولم يقف مدّ التأليف ونشاطه عند هذه العلوم، وإنما امتد إلى الكيمياء والطب والصناعات وعلم الحيوان، والفروسية، ككتاب «المختار من الأغذية» لابن النفيس (٦٩٧هـ) و«حياة الحيوان» للدميرى (٨٠٨هـ) و«كشف الكروب فى معرفة الحروب» لعماد الدين اليوسفى المصرى (٧٥٩هـ) وهنا يجدر التنويه ببعض الكتب الجامعة أو الموسوعات العلمية أو دوائر المعارف التى عرف بها العصر المملوكى؛ والتى يميل منهجها إلى «الاستطراد» وهو صدى إحاطة مؤلفيها، ومرآة ثقافتهم، ودليل مثابرتهم، والحق يقال: إن كل ما تضمنته هذه الموسوعات تراث فكرى طيب الغرس والْجَنَى، يبقى ذخراً ونبراساً..

هذا «نهاية الأرب فى فنون الأدب» للنويرى، كتاب ضخم فخم، يقع فى ثلاثين مجلداً، وجهته الأدب، لكن تتنوع فيه المباحث، وتتوزع بين علوم الفلك والجغرافيا والتاريخ الطبيعى والطب والسياسة والنبات والحيوان، إلى جانب الوجهة الأم لهذا السِّفْر الرائع.

و«مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى، ويقع فى عشرين جزءاً، وهو سجل ناطق بأدب مؤلفه وعلمه وسعة إلمامه بتاريخ الملوك والعلماء والأدباء، وعلم

وصف الأرض، وبه خطط وتراجم، ونوادر وطرائف وصور مختلفة من الأدب؛ قال عنه الصفدى: «هو كتاب حافل، ما أعلم أن لأحد مثله».

و«صبح لأعشى فى صناعة الإنشا» للقلقشندى، كتاب ضخم يقع فى عشرين مجلداً، يبحث فى آداب الكتاب، ومتطلبات صناعة الكتابة، وفى ديوان الإنشاء وقوانينه، ونظم الدولة ومراسمها، إلى جانب ما فيه من مباحث فى تقويم البلدان، واستطرادات نادرة، وتراجم ونصوص أدبية زاهرة.

و«خزانة الأدب وغاية الأرب» لابن حجة الحموى، صاحب الذوق الأدبى الخاص؛ تحدث الكتاب عن البديع والبلاغة، وطوّع الحموىُّ علومها قدر الطاقة لذوقه، ومزج مباحثها بالروح الأدبية؛ ولأن ابن حجة من أسرى البديع وضع خزانته شرحاً لبديعيته..

ويعدُّ كتاب الخزانة فى طليعة الكتب التى يؤمُّ ساحتَها دارس الأدب فى عصر المماليك، لكثرة ما فيه من نماذج لشعراء العصر، وصور ناطقة الأدب فى هذه الحقبة.

وهكذا زهت حركة التأليف وازدانت، وظلت مشرقة تؤتى ثمارها، حتى احتل العثمانيون الشام ومصر، عندئذ تقلص المد الثقافى، وانحسر وتقهقر، وتمكن الذل من النفوس، فخمدت القرائح، ونضب معين العلم، واطمأنت الكتب فى الخزائن، فلم يزعجها إلا اشتعال الأرضة فى صفحاتها، وضرب الجهل على أبصار الشرقيين فعموا، وطال عليهم الأمد فغشاهم النعاس، وخيّم عليهم الظلام، فلم يستيقظوا إلا بمدافع نابليون على أبواب القاهرة عام ١٢١٣هـ ١٧٩٨م.

الحلقة الثامنة

حال الأدب فى ظلال المماليك

تهيأت للحركة العلمية فى ظلال المماليك دوافعها، فنشطت، وآتت من الثمرات ما يُعَدّ مفخرة لهذا العصر، وما حفظ لنا خلاصة كتبنا القديمة القيمة، التى ذهب أكثرها إتلافاً وإحراقاً على أيدى التتار. وقد تهيأت للآداب جوانب من هذه الدوافع، إلاأنها لم تبلغ شأو العلوم، وما ذلك إلا لأن الآداب تحتاج إلى دوافع أخرى، من أهمها:

* فهم المثيب، وتذوق الحكام لما يُهدَى إليهم من طرائف الأدب، فإذا لم تجد الآداب من الرؤساء فهماً ووعياً وإدراكاً وتمييزاً ركدت ريحها، مهما كيل لها من الذهب النضار.

وقد افتقدت الآداب هذا الدافع الحيوى فى عصر المماليك، على الرغم أنه كان من سلاطين المماليك من كان يتمتع بقدرمن الفهم والذوق الأدبى، يثير إعجاب الكتاب والشعراء، غير أننا إذا قارناهم بأمثال: المهدى والرشيد والمأمون وسيف الدولة الحمدانى، ما أضحى هؤلاء شيئاً مذكوراً، ولتبين لنا ضآلة شأنهم من هذه الخاصية.

* أضف إلى ذلك أثر البيئة الفكرية المنحطة فى العصر، بسبب أدعياء التصوف المشعوذين والمتواكلين ومُرَوِّجى الخرافات، مما فرض على الأدب أن يسلك سبيله الضيق المتعرج، فبهتت صورته، ولم يعد يشع بالحياة التى هى أهم مقوماته، إذا أصبح تقليداً وزينة لفظية، مقتنصاً

لضروب البديع، وصمت طائره المغرد عن التغريد، وقعد عن التحليق فى أجواء الخيال الفكرى والتعبير الروحى.

ومن هنا: فقد الأدب أبرز معايير الجودة الفنية، والتى تكمن فى: قوة التعبير وجودته. والتلاحم الفنى بين الفكرة والصورة. مما يدل على فساد الأذواق.

وكانت هذه الحالة خليقة أن تودى بالأدب العربى، أو تهوى به إلى الحضيض فى ظل المماليك، لولا «ديوان الإنشاء» الذى يعزى إليه الفضل فى إحياء الأدب، وتنشيط حركته.

فلقد اتسعت آفاق ديوان الإنشاء فى زمن المماليك، وازدادت أهميته، وشمل نفوذه كل مرافق الدولة المملوكية، وضبط أمورها ومكاتباتها وتحرير الرسائل السلطانية فى مختلف الشئون. ونبه شأن القائم عليه، وعظم جاهه ونفوذه، حتى ليكاد يكون المستشار الأعلى للسلطان فى أمور الدولة، وكاتب أسرارها وكاتمها؛ ولأهمية هذا المنصب وخطره، اشترط فيمن يتولاه بعد حفظه لكتاب الله: أن يكون عالماً فى الأدب، ملمًا بكثير من العلوم النقلية والعقلية، بعيد الغاية فى جمال الإنشاء وروعة الكتابة، سديد الرأى، ظريفاً لبقاً، مستكنهاً شئون الدولة الداخلية والخارجية.

وقد بلغ كتاب الديوان منازل رفيعة لدى سلاطين المماليك، تعدل منازل أصحاب السيوف، وكبار القضاة، وهى منازل تربى على منزلة الوزارة، بل إن منزلة «كاتب السر» أو «رئيس الديوان» كانت أعلى المناصب وأرفعها، ولذا تنافس فى تولى هذا المنصب كبار كتاب الدولة، ومنهم من خلف للمكتبة العربية موسوعات فريدة.

ومن أشهر رؤساء الديوان: محى الدين بن عبدالظاهر (ت: ٦٩٢هـ) وابنه فتح الدين، ومحى الدين بن فضل الله العمرى، وأخواه: شهاب الدين، وشرف الدين، والشهاب محمود الحلبى، وعلاء الدين بن الأثير والقلقشندى، وغيرهم.

وإلى ديوان الإنشاء وأعلامه يرجع الفضل فى إنهاض اللغة العربية، وإنعاش آدابها فى مصر والشام، فقد كانت للغة العربية أيام ازدهاره دولة قائمة، ذهبت ريحها مع دخول العثمانيين مصر، وإبطالهم الديوان.

حقاً لقد ازدهرت فى عصر المماليك دواوين الإنشاء فى القاهرة ودمشق وغيرهما من العواصم، وقد حظيت مصر كما يقول «القلقشندى»:

من فضلاء الكُتَّاب بما لم تحظ به مملكة من الممالك، وحوت من أهل الفضل والأدب ما لم يحوه قطر من الأقطار، فما برحت متوجة بأهل الأدب، مطرزة من فضلاء الكُتَّاب بكل مكين أمين، وحفيظ عليم.

وهنا تَطلّ برأسها علامة استفهام حول إمكانية القول بنهوض الأدب ـ نثره وشعره ـ بواجبه، وتعبيره عن مظاهر الحياة المختلفة ـ فى ظلال المماليك ـ تعبيراً يَنْفى عن كتّابه ومبدعيه تُهمة العجز والتخلف؟

هذا ما ستحاول الصحائفُ التالية تِبْيانَه.

النثر الأدبى

فنونه واتجاهاته

تطلق كلمة النثر فى الحقل الأدبى فتعنى: النثر الأدبى الفنى، الذى يظهر فيه أثر التعقل والتفكير من جهة، والجمال الفنى من جهة أخرى.

وهو هذا الذى يعمد به صاحبه إلى التأثير فى النفوس؛ وبذلك يخرج من دائرة النثر الأدبى هذا النحو من الأحاديث العادية، وهذه العبارات التى يتبادلها الناس.

والنثر الأدبى فى عصر المماليك موزع بين عدة فنون، من أبرزها:

١ ـ الكتابة ٢ ـ فن المناظرة ٣ ـ فن المقامة ٤ـ الخطابة

١ـ الكتابة:

وتعنى الكتابة الإنشائية بفنونها: الديوانية والإخوانية والأدبية «الوصفية»، والتى يتأنق فيها صاحبها، ويحاول جاهداً إبرازها فى مظهر ساحر خلاب، وتتميز بما فيها من مظهر الروعة والجمال عن الكتابة العلمية، ويزداد الفرق بينهما وضوحاً، إذا لاحظنا جانب المعنى، فالكتابة الإنشائية تجنح إلى الخيال، وتخاطب القلوب إلى جانب العقول؛ أما الكتابة العلمية فإنها تعمد إلى تقرير الحقائق، وتناجى العقول، وترتكز على الحجج والبراهين.

والكتابة الإنشائية قد نشطت فى العصر المملوكى وازدهرت، لاهتمام المماليك بالكتابة، ولاسيما بالكتابة الديوانية، للحاجة إليها، مما جعل أدباء العصر يحرصون على تعلم الكتابة، ورأينا مؤلفات فى صناعة الإنشاء والترسل، حتى ندر فى شعراء العصر من ليس له نثر معروف، غير أنها لم تبلغ مبلغها أيام عبدالحميد بن يحيى الكاتب، وابن العميد، وبديع الزمان الهمدانى، والقاضى الفاضل؛ ولكن مع تخلفها عن ركب أولئكم الأعلام، فقد كان ازدهارها النِّسْبى كالظل واضحاً فى صدر عصر المماليك، ثم مالت شمسه نحو الغروب، بشيوع الزخرفة والانصراف إلى الزينة اللفظية، ثم تقصفت أقلامها، وتردت إلى الهاوية فى العصر العثمانى، بسبب القضاء على ديوان الإنشاء، وتَغْليب اللغة التركية؛ حتى اضطر بعض النابهين إلى تأليف نماذج إنشائية، تمثل الوجدانيات، من عتاب وشوق وتهنئة وتعزية، يرجع إليها من يريد أن يكتب شيئاً من هذه الموضوعات؛ كالمكاتبات والمراسلات للشيخ مرعى (١٠٣٠هـ) وإنشاء العطار للشيخ حسن العطار (١٢٥٠هـ).

توزعت الكتابة الإنشائية بين: الكتابة الديوانية، والكتابة الإخوانية، والكتابة الوصفيّة.

أما الديوانية:

فتمثل اتجاهات السياسة، وألسنة السّاسة، وبمعنى آخر: هى صورة الحياة السياسية، وهى المكاتبات التى تصدر عن السلطان، تتعلق بسياستى الدولة الداخلية والخارجية.

ولقد حظى كُتّاب ديوان الإنشاء، سواء منهم من شغلوا منصباً فى الديوان، أو من تولَّوْا كتابة السر، أو من كتبوا لكبار الأمراء، بمكانة

مرموقة فى الدولة، لشدة الحاجة إليهم فى الترسل ومخاطبة الرعية، وإصدار المنشورات باللغة العربية - لغة المواطنين - والتى لم يتقنها المماليك - الحكام - فتمسكوا بالكتّاب ليكونوا ألسنتهم المعبرة، وأقلامهم المترجمة المفصحة.

ومن ثَمّ عنى المماليك بالكتابة الديوانية أيما عناية، واستجاب منشئو الديوان لهذه العناية، فجاء نثرهم مرآة مجلوة انعكست على صفحتها مظاهر الدولة، وصورة دقيقة لأحداثها السياسية، وسجلاً حافلاً باتجاهاتها فى الداخل والخارج.

وتعددت موضوعات هذه الرسائل الديوانية بتعدد المناسبات، فمنها ما يتبادله الملوك والسلاطين فيما بينهم من مهام الأمور، وجلائل الأحداث فى الحرب والسلام، ومنها رسائل صداقة وود وتهانى وأمنيات، ومنها الوعيد والتهديد بالحروب الطاحنة والويل والثبور وكتب العهود؛ من هذه الرسائل ما كتبه محيى الدين بن عبدالظاهر على لسان الظاهر بيبرس إلى (بيموند) - أحد أمراء الصليبيين بالشام - بعد أن هزمه بيبرس، وفتح أنطاكية وطرابلس، واصفاً هذا الفتح، مبرزاً ماعاناه الصليبيون حين حمى وطيس الحرب: «فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول، والكسابة فيها تجول، وأموالك وهى توزن بالقنطار، وداماتك - نساءك - وكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت، وصحفها من الأناجيل المزيفة قد نثرت... إلخ» والرسالة تشف عن فرح المسلمين الفاتحين بنصر الله.

وإليك جانباً من رسالة أخرى للكاتب نفسه على لسان قلاوون، إلى سلطان التتار أحمد غازان، بعد اعتناق الإسلام، رداً على رسالة منه فى طلب الهدنة والسلام؛ قال بعد بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله: «وصل الكتاب الكريم، المتلقَّى بالتكريم، المشتمل على النبأ العظيم، من دخوله فى الدين، وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين...

وتوجهت الوجوه إلى الله سبحانه فى أن يثبته على ذلك بالقول الثابت، وأن يُنبت حبَّ هذا الدين فى قلبه، كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت.. فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام..».

ويتضح ابتهاج قلاوون ومن معه من المسلمين بدخول غازان فى الإسلام، وتركه دين جماعته من التتار والأمل الذى ينطوى عليه هذا الإسلام فى أن يكون عوناً وصديقاً، بدلاً من أن يكون عدواً لدوداً.

ومما كتبه تاج الدين بن الأثير على لسان المنصور قلاوون إلى ملك اليمن سنة ٦٧٨هـ يبشِّره بفتح طرابلس بالشام:

«بسم الله الرحمن الرحيم..

أعز الله نصر المقام العالى السلطانى الملكى المظفرى الشمسى»

ـ ثم قال بعد هذا الاستهلال، المثقل بأغلال الألقاب ـ «وكانت الخلفاء والملوك فى ذلك الوقت ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه، مُكبّ على مجلس أُنسه، يرى السلامة غنيم، وإذا عَنّ له وصف الحرب لم

يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة، قد بلغ أمله من الرتبة، وقنع من ملكه - كما يقال - بالسكة والخطبة.

أموال تنهب وممالك تذهب، لا يبالون بما سلبوا، وهم كما قيل:

إن قاتلوا قتلوا أو طاردوا طردوا ∴ أو حاربوا أو غالبوا غلبوا

إلى أن أوجد الله من نصر دينه، وأذلّ الكفر وشياطينه»(١).

نعم! فى هذه الرسالة سجع، لكنه غير متكلف، ولم يثقل الكاتب فى حلل البديع وصنعة الألفاظ إثقال ابن عبدالظاهر فى رسالتيه السابقتين.

ومن رسالة لشهاب الدين محمود يحض فيها على القتال، ويحذر من تحرك للعدو: «أصدرناها ومنادى النفير قد أعلن: «يا خيل الله اركبى، ويا ملائكة الرحمن اصحبى، ويا وفود الظفر والتأييد اقربى، والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب إلى العدا، والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام، فلو كان فى مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى، والسيوف قد أنفت من الغمود، فكادت تنفر من قربها... والنفوس وقد أضرمت الحميّة للدين نار غضبها، وعداها حرُّ الإشفاق على ثغور المسلمين عن برد الثغور وطيب شنبها، والنصر قد أشرقت فى الوجود دلائله، والتأييد قد ظهرت على الوجوه مخايله، وحسن اليقين بالله فى إعزاز دينه قد أنبأت بحسن المآل أوائله...»(٢).

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٢٣/٧، وراجع الأدب فى العصر المملوكي د. محمد زغلول سلام ٨/٢.

(٢) النفير: الجماعة من الناس ينهضون إلى الحرب. منادى النفير: داعى الحرب. اركبى: تقدمى. اصحبى: كونى فى صحبتنا إلى الحرب. انظر: حسن التوسل إلى صناعة الترسل ص ٣٣٢، وصبح الأعشى ٤٤٨/٨، ونهاية الأرب ١٩١/٧.

وتوجد إلى جانب هذه الكتب الرسمية المتبادلة بين الملوك والولاة رسائل تعالج حالات اجتماعية، أو تبطل ظاهرة قبيحة تخالف الدين، ومن ذلك ما كتبه محيى الدين بن عبدالظاهر مقرراً أمر الظاهر بيبرس بإبطال الحشيش بعد الخمر، وفيها يقول:

«قد بلغنا أن أم الخبائث ما عقمت، والجماعة التى كانت ترضع ثدى الكأس قد أرتعت بعدما فَطمت، وأنها فى النشأة ما حبّب إبليس مسعاها، وأنها لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها، وأنها استراحت من الخمار، واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه بدينار، وأن ذلك قد فشا فى كثير من الناس... ونحن نأمر أن تجتثّ أصولها وتقتلع، ويؤدب غارمها حتى يحصد الندامة كلُّ زارع... ويشهر مستعملها فى المحافل حتى تنتبه العيون من هذا الوَسَن، وحتى لا تشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن».

واضح أن الرسالة تصدت لظاهرة قبيحة، وأن الكاتب استخدم عامداً ضروباً من البديع، وافتنّ فيها على الرغم من أن الرسالة رسمية. ومن هنا نقول: إن كتّاب ديوان الإنشاء فى العصر المملوكى قد نهضوا بأعبائه، وعنوا بالرسائل وتدبيجها، حتى اختالت كلٌ منها بنسقها الخاص؛ وإن الكتابة الرسمية لم تمنع الكتّاب من الركض خلف بريق الحلى اللفظية والافتنان فى ضروب البديع.

وأما الكتابة الإخوانية:

فهى التى تدور بين الأصدقاء والأدباء، وتعبر عن علاقات الود والشكر والعتاب والرجاء، أو عن تبادل الآراء الأدبية والاجتماعية، وكثيراً

ما كان المتراسلون يطوون رسائلهم على شيء من النقد الاجتماعى والنقد السياسى، إن تلميحاً أو تصريحاً، فكاتبها يطلق لقلمه العنان؛ وهى لذلك ألصق بالخواطر وأعلق بالوجدان والمشاعر، ومن ثَمّ فهى تتمتع بالصدق والعاطفةوالإحسان.

وعلى هذا فالكتابة الإخوانية تصور الحياة الاجتماعية خير تصوير، فقد تناولت أغراض المديح والوصف والاستعطاف، واللقاح الأدبى والاجتماعى، ونقد ظواهر الحياتين: الاجتماعية والسياسية، إلا أنها خلت من بعض الأغراض، كالهجاء مثلاً.. وفى هذا دلالة على تبحّر الكتابة الإخوانية فى ذلك العهد. منها ما قاله شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى وصف شمس الدين بن عفيف الدين التلمسانى المعروف بالشاب الظريف (٦٨٨هـ).

وفيما قاله ـ كما سترى ـ معنى لطيف، ولفظ أنيق، واشتمال على أبعاد فقهيةك «نسيم سرى ونعيم جرى وطيف، لابل أخف موقعاً منه فى الكرى لم يأت إلا بما خف على القلوب، وبرىء من العيوب، رقّ شعره حتى كاد لرقته أن يشرب، ودقّ فلا غرو للقضب أن ترقص، وللحمام أن الآذان، وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتناناً بشعره ـ وخاصة أهل دمشق ـ فإنه بين غمائم حياضهم رباً وفى كمائم رياضهم حبا، حتى تدفق نهره، وأينع زهره»[1].

---

(١) سرى: سار ـ انتشر ـ ليلا. الطيف: الخيال يرى فى المنام. الكرى: النوم، لا غرو: لا عجب. القضب: جمع قضيب وهو الغصن. ولج: دخل. يقرع: يطرق. الافتنان: الإعجاب. الغمائم: جمع غيمة: السحابة. الحياض: أحواض الماء. ربا: تربى ونشأ. الكمائم: جمع كامة، وهى الأوراق الخضر التى تكون فيها الزهور قبل أن تتفتح. حبا: أينع: نضج: وهى تستعمل للثمر لا للزهر.

وخرج للشهاب الحجازى (٨٧٥هـ) دُمَّل، فكتب إلى الشريف صلاح الدين الأسيوطى:

«لقد طال ليل ساءنى فيه دمـــل .·. فأسـهر أجفانى ولم أستطع صبرا

كأنى بعلم الوقت مُغرى، فها أنـا .·. أراعـى نجوم الليل أرتقب الفـجرا

فيا له من دمل خلته من حرارته جمرة، بغّض إلى الحياة فكرّ فى مهجتى كرة وكرة، فلم أجد بدا من استعمال الصبر مذ وصف لى فما أحلاه وما أمرّه، حتى أشبهت القول الشاذ، ... على أن صاحب الدمل ضعيف لا يزار، وكلما قصد استعارة الصبر ـ وتهجم عليه الليل، رجع عن ذلك واستعار استعار»[١].

وغلب الترسل بخصائصه الأنيقة، والصاعة المنمقة، كذلك على مقدمات الكتب ومتونها، وخصوصاً فى الدراسات الأدبية، وفى التقارير التى يدبجها الأدباء لأصدقائهم المؤلفين، وغالباً ما تنطوى على مدح مطلق، كما فى قول عمر بن الوردى (٧٤٩هـ) يقرّظ قطعة من شعر ابن حبيب الحلبى: «تأملت هذه النبذة التى رق من قائلها الطباع، فافتخرت بنظرَها الأبصار على الأسماع، فوجدتُها مشتملة على مبانى القوافى الفوائق، والمعانى الرقائق. فقبسها بدرى، وكوكبها دُرّى، هاجت لى ذكرى حبيب، فهى زبدة من حليب، لابل قطعة من طيب،... ألطف من الرياض عند الصباح، وأرق من رحيق الطّل فى ثغور الأقاح... قدّر

---

(١) مُغْرَى: مكلف. أراعى: أراقب. أرتقب: انتظر. كر: هجم. (الأصوب أن يقول: إذكرّ على مهجتى ألف كرة وكرة). القول الشاذ: فى العلوم: ما يهجره العلماء ولا يأخذون به، فيكون مهملاً. (استعار ـ استعار ـ استعر ـ اشتعل).

ناظرها فى السَّرْد، وقال ناظرها بالجوهر القرد، ونابَت[١] مَنَاب سيوف الهند، وأغنَت عن التَّشْبيب بسعاد وهند... فلو ألقيَت على وجه أبى العلاء لأتى بصيراً».

وأما الكتابة الوصفية:

فتعد أبرز الفنون الكتابية عند المنشئين، فهى الحلبة التى تتجلى فيها المنافسة الأدبية، وتظهر فيها آثار القرائح ونبضات العواصف. ومواطن الإحساس، ومناطق الخيال والإبداع، فهى رسائل أدبية ندبَة، ومعارض من القول ذات رؤى. وقد استجاب الأدباء المترسلون لعواطفهم، وتجاوبوا مع أحاسيسهم، ومشكلات الثقافة، والآن، والفن، وكل ما يتصل بالنفس والمجتمع والحياة.

فصوروا انفعالاتها تجاه الكون وبدائعه والظواهر الطبيعية، فى رسائل وصفية، وفى هذا اللون الوصفى نلمح أثر الخيال اللماح، وتفنّن الكتّاب فى الوصف، والبراعة فى التعبير الأنيق، ومنه ما قاله ابن حبيب الحلبى (٧٧٩هـ) فى وصف سفينة فى بحر هائج، فى كتابه «نسيم الصبا» (وهو فى الأدب الوصفى):

---

(١) لقبس: شيء قليل من نار أخذ من نار كثيرة. بدرى نسبة إلى البدر ـ جيل) كوكبها: نكتتها. درىّ: كثير اللمعان. الرحيق: السائل الحلو فى قلوب الأزهار. الطلّ: قطرات الندى الليليّة على الأغصان ـ أو النظر الخفيف ـ الأقاح: جمع جمع جمع الأقحوان جمع الأقحوانة، وهى زهر جميل أبيض تشبه به الأسنان ـ حبيب: أبو تمام حبيب بن أوس الشاعر العباسى؛ وذكرى حبيب: اسم الشرح الذى صنعه أبو العلاء المعرى لديوان أبى تمام. ناظرها الأولى: ناظمها، والثانية: قارئها.

«هزّتنى رياح الأمل البسيط إلى امتطاء ثبج البحر المحيط، فأتيت سفينة يطيب للسفر مثواها، وركبت فيها بسم الله مجراها ومرساها، ... يالها سفينةً على الماء أمينةً، ذات دسر وألواح تجرى مع الرياح، وتطير بغير جناح، تعتاض عن الحادى بالملاح، تخوض وتلعب، وترد ولا تشرب، لها قلاع كالقلاع، وشراع يحجب الشُعاع، وسكينة وسُكّان، ومكانة ومكان، وجؤجؤ وفقار، وأضلاع محكمة بالقار، وجسم عار عن الفؤاد، وهو فى عين الماء بمنزلة السواد، من أحسن الجوارى المنشآت فى البحر، معقود بنواصيها الخير كالخيل لا تملّ من سير النهار، ولا من سرى الليل.

ما رأى الناس من قصور على الميا(*) ه تسير سير القداح(١)

حاكمها عادل فى حكمه، عارف بنقض أمرها وبرمه، يهتدى بالنجوم، ويبتدى باسم الحى القيوم، يبرز من نواتيها فى جنود، ويشمل

---

(١) اقتباس من قول الله تعالى فى سورة هود: «وقال اركبوا فيهاب سم الله مجراها ومرساها» دسر: جمع دسار وهو مسمار أو حبل من ليف تشد به ألواح السفينة، تخوض وتلعب: تتحرك حركات تدل على اللهو والطيش، واقتبسه من قول الله تعالى فى سورة الزخرف: «فذرهم يخوضوا ويلعبوا»، ترد: تذهب إلى الماء. ولا تشرب: لا يدخلها الماء مع أنها سابحة فيه. القلاع: جمع قلع (بكسر القاف) شراع السفينة، كالقلاع: جمع قلعة بالفتح: الحصن، سكّينة: حرف السفينة الأمامى. السكان: الدفة الموجهة للسفينة. الجؤجؤ: مجتمع عظام رؤوس الصدر، وجؤجؤ السفينة: صدرها، والجمع: جآجئ، وفى قول العجير السّلولى:

كأن هيدبة من فوق جؤجؤها ∴ أو جرو حنظلة لم يعْدُ راميها

وجسم عار عن الفؤاد: أجوف، فارغ السواد: سواد العين، ورشح للمعنى بقوله: فى عين الماء، الجوارى المنشآت: اقتباس من قوله عز من قائل فى سورة الرحمن: «وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام» واقتبس تشبيهها بالخيل من قول الرسول ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير». القداح: جمع قِدح بكسر القاف السهم.

إحسانهم أهلها أيقاظاً وهم رقود، يتأنقون فيما يعملون، ويفعلون ما يؤمرون.

يكثرون الصياح حتى كأن السفن تجرى من خوف ذاك الصباح(١)

فبينما نحن من البحر في قاموسه، كتب الجو حروف الغيم في طروسه، وثارت ريحٍ عاصف، يتبعها رعد قاصف، فمالت بنا الفلك واضطربت، ودنت شفتها من رشف الماء واقتربت، واستمرت ترفع الماء وتخفض، وتقرب وترْفض، وتعلو كالأطواد، وتهيم في كل واد، وتحوم وتحول، وتحور وتجول، وتضرم في القلوب نار ناجر، إلى أن بلغت القلوب الحناجر.

ألا فارْجُه واخْشَهُ، إنــه هو البحر فيه الغنى والغرق(٢)

ثم نظر إلينا من لا تخفى عليه السرائر، وأمر الجارية بحمل العبيد إلى بعض الجزائر، فلم ندر إلا ونحن تجاه جزيرة، تسر النفوس بمحاسنها

---

(١) قوله : أيقاظا وهم رقود، اقتباس من قول الله عز وجل في سورة الكهف: ﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود﴾. وقوله: ويفعلون ما يؤمرون، اقتباس من قوله الله تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

(٢) القاموس: معجم الماء. الطروس: جمع طرس، الورق. العاصف: المتحرك حركة شديدة. القاصف: الشديد الصوت. رشف الماء: أخذه بالشفتين قليلاً قليلاً. وقد استغل الكاتب بعض المصطلحات النحوية في قوله: «ترفع وتخفض» ترْفض: تبعد. الطور: الجبل. تهيم في كل وادك تسير على غير هدى، اقتباس من قول الله تعالى في الشعراء : ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون﴾.

تحرم: تطوف وتدور. تحول: تهدأ. تحور: تعدل سيرها. تجول: تجرى في أماكن مختلفة. ناجر: من شهور الصيف. بلغت القلوب الحناجر: ضاف الأمر على الناس، اقتباس من قوله عز وجل في سورة الأحزاب: ﴿وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾. ارجه: انتظر منه الخير. اخشه: خفْ منه.

الغزيرة، فانحدرت ماضياً إلى بنيها، نائيا عن السفينة وساكنيها، فوجدتها مخضرة الأفنان، مخضلة الكثبان»[1].

وجدير بالذكر أن أشير إلى: أن الخيال اللماح فى هذه الرسالة الوصفية واضح كل الوضوح، وأن جمال التعبير وتنميقه بارز فيها؛

إلى جانب أن الأديب ضمن قطعته الفنية هذه أبياتاً من الشعر، واقتبس من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، وضمن قوله مصطلحات علمية، كما بدا لك. وهذه السمات من سمات الكتابة فى العصر المملوكى.

وكان المجتمع فى عصر المماليك قد تردّى فى حمأة الرذائل، وكثرت فيه المباذل، وانغمس فيه كثيرون. يصور لنا محمد بن دانيال الموصلى المنبت القاهرى الموطن (٧١٠هـ) جانباً من الفساد الاجتماعى، والحال بعد أن قضى بيبرس على جميع الملاهى الشائنة سنة ٦٦٥هـ بقوله: «وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان، فانكفت ألسنة البواطى[2]، وتابت البغايا والخواطى[3]، وتأذى الفلاح غاية الأذية، وصلب نباذ وفى عنقه نباذية[4].

---

(١) الجارية: السفينة، وفيها تورية. الأفنان: جمع فَنَن، والغصن. مخضلة الكثبان: مبتلة التلال، كثيرة الماء والنبات.

(٢) البواطى: أوانى الخمر.

(٣) البغايا: جمع بغى وهى المرأة التى تبيع نفسها بأجر. والخواطى: جمع خاطئة، وهى المرأة التى تبيح نفسها.

(٤) نبّاذية: وعاء يوضع فيه النبيذ.

وأنشد الشاعر فى الحال، وقال من قال:

لقد كان حد السكر من قبل صلبه
خفيف الأذى إذ كان فى شرعنا جلد
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى
ألا تُب، فإن الحد قد جاوز الحدا

وشاعت الأخبار، وقوى الإنكار، وانكسر الخمّار، وانطحن المزّار[١] وأنزوى المسطول[٢] فى القُرْنة الغبراء، وصارت كل يابسة فى كفه خضراء، وضاقت الصدور بهذه المفاسد والمباذل، ووقف العلماء يدفعونها، وينقدونها نقداً لاذعاً، حرصاً على الشريعة الإسلامية الغراء، ودفاعاً عن حياضها وحماها؛ وقد جاء نقدهم صدى لما تتنزى به صدور السواد الأعظم من الناس، ورجعاً لما يدور على ألسنتهم آنذاك، كالإمام السبكى فى كتابه «معيد النِعم ومبيد النقم» وابن الحاج الفاسى المغربى النشأة المصرى الموطن فى كتابه «المدخل» فما ترك بدعة ولا رذيلة درج عليها أهل القاهرة فى العصر المملوكى إلا كشف النقاب عنها، ونقدها، معتمداً فى ذلك على القرآن الكريم والحديث الشريف وآراء السلف ومختارات الفقهاء؛ وللمدخل إلى جانب قيمته النقدية العلاجية والفقهية قيمة أدبية، بما تضمنه من حكايات وقصص ونصوص أدبية، وأسلوبه الواضح الجلى، المنساب انسياب الماء، البعيد عن تكلف الزخرفة اللفظية.

---

(١) المزّار: صانع الخمر.
(٢) السمطول: السكران.

وقد تنوعت موضوعات الرسائل الوصفية، وتناولت كل ما وقعت عليه العين ورآه الخاطر عَظُمَ أوهان.

هذا عمر بن الوردى يصف الديك فى رسالة سماها «منطق الطير» وقد نحا فيها منحى وعظياً، فى أحضان وجهة دينية، يقول فيها[١]:

«فصاح الديك: ها أنا أناديك، أنا قد أذنت، فأقم الصلاة أنت، هذا أوان صفّ الأقدام، ووضع الجباه. ومن أحسن قولاً ممّن دعاء إلى الله؟

كم أوقَظُك، وبانقضاء الأوقات أَعِظُك، فأُشفَقْ عليك بصياحى. وأرفرف عليك بجناحى... أنهاكم عن معصية الله بخروج الوقت، فلا تعصوه، والله يقدر الليل والنها، علم أن لن تحصوه. فمن ادعى حسن الصحبة، فليؤثر كإيثارى، ولا يختص من رفاقه بحبه. كم منحت أهل الدار إخائى، ووليتهم ولائى، وهم يذبحون أبنائى، ويستحيون نسائى».

والرسالة هذه تعكس ملكة صاحبها الإبداعية ولمحته وتفننه وظرفه، على ما بها من تعمد استخدام البديع اللفظى والمعنوى على طريق العصر، اتجاهاً بها إلى البُعد الوعظى الاعتبارى، وإمعاناً من الكاتب فى هذا التوجه فقد رأيناه يضمّن فقراتها بعض آيات الذكر الحكيم.

لقد كانت الكتابة فى العصر المملوكى على الرغم من ميلها إلى تقليد السابقين، والاجترار من معانيهم، وحرصها على التوشية والزخرفة، كانت أوسع أفقاً، وأرحب مجالاً من الشعر، وأرفق بحملها وأوفى بتبعاتها، وأجدر بالنهوض بدورها والاضطلاع بمسئولياتها.

---

(١) مطالع البدور فى منازل السرور للغزولى ١/٧٥.

٢ - فن المناظرات:

لون من النثر الفنى، ينهض على سعة الأفق، وحسن التأتى، ويقظة الذهن، ونبوغ الموهبة، وهو عبارة عن مغامرات أو موازنات قائمة على الحوار بين شيئين، يحاول كل منهما تفضيل نفسه على نظيره أو مُفاخِره، بما يسوقه الكاتب على لسانه، من إظهار خصائصه وتجلية محاسنه؛ مستهدفاً تفضيله؛ وقد يتوخى ذِكرِ معايب الآخر، حتى ينهى المحاورة بالمصالحة أو بتغلب أحدهما. وسَدَنةُ فن المناظرات يقيمونه بين الأشياء المتناقضة التى تربط بينها جامعة ما كفصول السنة والأزهار والمدن والسيف والقلم وأشباه ذلك. وموضوع المفاخرات قديم، قد رأينا شيئاً منه عند الجاحظ فى (كتاب الحيوان) فى وصف الكتاب، وفى الموازنة بين الربيع والخريف، وبين الديك والكلب؛ وعرف فى الأندلس بإفاضة؛ غير أنه فى العصر المملوكى قد أصبح فناً متميزاً، برع فيه كتابالعصر، إذ اتسع نطاقه، وكثرت أغراضه، وشاع عند الأدباء[١]. من أشهر المناظرات: مناظرة السيف والقلم لابن نباتة المصرى (٧٦٨هـ) والتى منها[٢]: «قال القلم: بسم الله الرحمن الرحيم؛ ن، والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون، ثم الحمد لله الذى علم بالقلم، وشرفه بالقسم...

---

(١) اتسعت دائرة المفاضلات فى عصر المماليك وامتدت إلى المفاضلة بين البلاد أو الأقاليم، حتى إن المفاضلات بين المدن تتناظر وتتناقض أحياناً فى مدينة بعينها، فمناظرة تمدح وأخرى تقدح.. وفى خطط المقريزى رسالتان فى «القاهرة» إحداهما قدح والأخرى مدح... ولكلٍ وِجهة.

(٢) خزانة الأدب لابن حجة ص ١٠٤ - ١٠٩ وراجع فى رسائل المناظرات: خطط المقريزى الجزء الأول، والدّرر الكامنة لانب حجر الجزء الثانى.

أما بعد: فإن القلم منار الدين والدنيا، وقصبة سبق ذوى الدرجة العليا، ومفتاح باب اليمن المجرّب إذا أعيا... به رقَّم الله الكتاب الذى «لا يأتيه الباطل» وسنة نبيه ﷺ التى تهذب الخواطر الخواطل، فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنة، وحسبه ما جرى على يده الشريفة من منّة.... إن نظمت فرائد العلوم فهو سلكها.. وإن تشعبت فنون الحكم فإنما هو أمانها ومآلها، .. الجارى بما أمر الله من العدل والإحسان، والمسود الناصر فكأنما هو لعين الدهر إنسان، لا يعاديه إلا من سفه نفسه، ولبس لبسه، وطبع على قلبه، وفل الجدال من غربه.. أقول قولى هذا وأستغفر الله من الشرف وخيلائه والفخار وكبريائه...

فعند ذلك نهض السيف عجلا، وتلمظ لسانه للقول مرتجلاً، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوى عزيز» الحمد لله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف، وشرع حدها بيد أهل الطاعة على أهل العصيان فأغصتهم بماء الحتوف، وشيد بها مراتب «الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» وعقد مصروف، ... أما بعد: فإن السيف زند لحق القوى، وزنده الورى؛ وحده الفارق بين الرشيد والغوى، به أظهر الله الإسلام وقد جنح خفاء، وأجرى سيوفه بالأباطح، فأما الحق فمكث، وأما الباطل فذهب جفاء، وحملته اليد الشريفة النبوية... أقولى قولى هذا وأستغفر الله العظيم من لفظ يجمح، ورأى إلى الخصام يجنح، ولسان يحوجه اللدد إلى أن يخرج فيجرح.. إلخ[١].

---

(١) اقتبس ابن نباته فى هذه المناظرة عدداً من آى الذكر الحكيم، هى على التوالى: من سورة القلم (١ ـ ٢) ومن سورة العلق (٤) ومن سورة السجدة (فصلت) (٤٢) ومن سورة الحديد (٢٥) ومن سورة الصف (٤) ومن سورة الرعد (١٧).

وهذه المناظرة على طولها المفرط رائعة، فيها يتحاور الفكر بمنطق العقل المتزن ولغة الثقافة المستنيرة، وصولاً إلى الهدف؛ وهى تنمّ عن ذكاء كاتبها وألمعيته وروعة بديهته وأريحيته.

٣- فن المقامات:

من فنون النثر الأدبى التى ذاعت فى عصر المماليك، والمقامة تلى الرسالة أهمية وشهرة، بل لعلها تقدمت عند بعض الأدباء، إذ كانت إليهم أدنى، ولهم أطوع، لاعتمادها على الصناعة وشحذ كيانها بضروب البديع، وهم سدنته وأسراؤه.

وقلما نجد أديبا من أدباء العصر لم يدل فيها بدلو، أو لم يكن له فيها نصيب.

بيد أن الشهرة نسجت خيوطها حول جماعة من كتاب المقامات فى العصر المملوكى، يأتى فى مقدمتهم: صلاح الدين الصفدى (٧٦٤هـ) والشّاب الظريف ـ عفيف الدين التلمسانى (٦٩٠هـ) وعمر بن الوردى (٧٤٩هـ) وصفى الدين الحلى (٧٥٠هـ) وشهاب الدين القلقشندى (٨٢١هـ) وتقى الدين بن حجة الحموى (٨٣٧هـ) وجلال الدين السيوطى (٩١١هـ) وحاتم بن أحمد العطار المصرى.

والمقامة ـ كما عهدناها ـ عند أعلامها من أمثال الهمذانى والحريرى: قصة قصيرة، أو حكاية طريفة فى إطار لفظى منمق، مرصع بألوان البديع، تنضوى على عظة أو ملحة، وتلاعب كاتبها بمقدرته التعبيرية، بهدف إمتاع السامعين وجذب اهتمامهم. والمقامة عند أعلامها فى العصر العباسى تدور على الكدية والاستجداء، سافراً مؤلفها فى ذلك أو

مقنعاً، أو تجيء مفصحة على حيل المكدين وفنونهم التى يحتالون بها على الناس، حتى يصلوا إلى غايتهم.. لكن التكدى والاستجداء لم تعد غاية المقامة أو الباعث على إنشائها فى عصر المماليك، فقد طرأ على نظامها تغير وتجديد، وعلى باعثها وغايتها تحول.. إذ لم يعد كتابها فى هذا العصر متمسكين بأصولها التى أرساها الهمذانى، ونماها الحريرى، والتى تتمثل فى أن يكون لها راوية وبطل واحد تتسلسل أحداثه ومواقفه فى كل مقامة، تستقل كل واحدة بحدث، ويربط بينها الرواية، كعيسى بن هشام راوية أبى الفتح الإسكندرى عند الهمذانى، والحارث بن همام راوية أبى زيد السروجى عند الحريرى؛ أما فى هذا العصر فقد تخلصت المقامة من الراوية واكتفت بالحكاية، وحافظت على الشكل اللفظى المسجوع، ذى الفقرات القصار، والبديع المتواتر؛ وقد تُلائم المقامة فى غلالة التورية بين الراوية والمناسبة الداعية إلى تأليفها، على غرار صنيع ابن الوردى فى مقامة «صفو الرحيق فى وصف الحريق» إذا استهلها قائلاً: «حديث غياث بن سحاب عن ندى بن بحر» وغير خافٍ تمام المناسبة بين الحريق والماء الذى أشار إليه بهذه الأسماء، إذ الحريق يستدعى الماء، وهو عدة إطفائه. كذلك أضحى منشئ المقامة بطل أحداثها، فقد حل الكاتب نفسه محل بطل الهمذانى أو الحريرى، وانتهى بذلك انتحال تلك المنظومات والغرر على لسان أحد، وقد تحول باعث المقامة وغايتها من الكدية والاستجداء إلى بواعث وغايات أخرى، واتسعت دائرتها، فنهضت فى الوصف والشكوى والموعظة والحكمة والنقد والمحاورة والغزل والمجون، وانتصبت كذلك لغاية تعليمية.

فمن كتاب العصر من استغل المقامة فى التعبير المباشر عما ـ يجرى من أحداث، أو الإفصاح عن اللواعج والهموم والأفراح، فى ثوب قصصى.

ومنهم من اتخذها سبيلاً إلى الموعظة والإرشاد، والتعليم والتثقيف؛ وآخرون اتخذوها وسيلة إلى اللهو والإضحاك ورسم الصور الهزلية (الكاريكاتيرية) لأشخاص أو معالم فى المجتمع.

من غاياتها النبيلة: الغاية التعليمية، وذلك مثل ما فعله «السيوطى» فى إنشاء مقامات تناولت مسائل نحوية وفقهية وتاريخية؛ وما فعله «القلقشندى» فى مقامته المسماة «الكواكب الدرية فى المناقب البدرية» والتى أنشأها فى مدح «بدر الدين محمد بن فضل الله» صاحب ديوان الإنشاء وقتذاك، إلا أنه ضمنها تاريخ أصول صناعة الكتابة، وما ينبغى أن يتحلى به الكاتب المنشئ من ألوان المعرفة والثقافة.

وللمقامة قيمتها التاريخية، إذ تنطق بما يلم بالعصر من أحداث، وتفصح عن أخلاق أهله وألوان الحياة لديهم، وذلك على غرار مقامة الشيخ جمال الدين عمر الرسعنى فى وصف وقعة حلب، منها[1]: «هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام، وهملت عيون العناء كالغمام، وصار وشام الإسلام كالوشام؛ وخفيت آثار المآثر ودرست، وطفئت أنوار المنابر وطمست؛ وحلبت العيون ماءها على حلب، وسكبت الجفون دماءها من الصبب، والتقى عليها الختل والاختلال، واختفى بها القتل والوبال،

(١) تاريخ بان الوردى ٢/٢١٦ يقول ابن الوردى عن هذه المقامة: لعلها من أحسن ما قيل فى ذلك».

وتخريت الدور والقصور، ونحرت الحور فى النحور، وجرت عيونها على أعيانها، وهمت جفونها على شبانها، .. ولما تعظم العدو وتكبر، وتقدم بالعتو وتجبر.. أطلع له طلائع اللواء المظفر...» إلخ.

وهى مقامة طويلة، تنفر مما بها من تكلف، كان من وراء تسمية ابن الوردى إياها بالمرصّعة.

وجدير بالذكر أن جل كتاب المقامات فى هذا العصر كانوا يطرزون مقاماتهم بأشعارهم، كما فعل «الشاب الظريف» فى مقامته التى تدور حول شاب أراد أن يستمتع بالرياض فوجد جماعة يتذاكرون الأدب، ويروون الشعر والخطب، وبينهم شاب عليه أمارات الغرام.. أعجب الحاضرون بحديثه، وفى المقامة ينشد الشاب قوله:

هل عائدٌ والأمـــانى ربّما صدَقت

دهر مضى، ومغانى حسنهم أمَمُ

يا غائبين ووجـــدى حاضر بهم

وغائبين وذنبى فى الغرام هــمُ[1]

من مقامات العصر: مقامة حاتم بن أحمد العطار، والتى منها[2]:

«روى فى الأخـبـار، عن حـاتم العطار، قـال: ضـربت بظاهر بعض الأمـصـار، لأقضى وطرا من الأوطار، فنظرت إلى أعلام على أطلال، تلوح على البعد كالجبال، فسفحت الخطا فى السعى إليها، وعولت فى

(١) الشعر للشاب الظريف منشئ المقامة.

(٢) الطالع السعى دللإدفوى ١٨٧.

سرعة المسير لديها، فإذا روضة قد زهت أو ساق بواسقها، وأمرعت أفنان حدائقها، وذللت قطوفها، وجلت عن الإحصاء صنوفها، وصفقت جداولها، وزمزمت على إيقاع الأوتار بلابلها، وأخذ بها الهَزَارُ فى الهديل، وتغنت الشحارير على حس النواعير:

قد تباهى المنثور فيها على الـورد ونسـرينُها علـى الجـلنار

ثم قال فى وصف أهلها: كحور متكئين، على سرر متقابلين، قد فضوا قمص الوقار، وتحلوا بحلى البهار والنضار، يتناشدون الأشعار الأوسية، والملح الأدبية، ويتوارَدون الأخبار النبوية، والخطب الوعظية، ويتناظرون فى الآراء الطبية والأحكام الفلكية... فبينما هم على تلك الحال، إذ ورد عليهم رجل من الرجال.. إلخ، وتجرى المقامة على هذا النسق، لوحات متعاقبة، يظهر فيها الكاتب مقدرته الفنية، فيمتع السامعين من أهل المجلس، وهى قريبة مما كان يرتجله بطل مقامات الهمذانى، ويلجأ إليه من تمويه على السامعين ببراعته الأدبية، نظماً ونثراً.

وجدير بالذكر أن نقول: إن المقامة شاركت الرسالة، وإنها قامت فى هذا العصر المملوكى بدور المقالة فى العصر الحديث[1].

وهكذا رأيت أن الكتابة بفنونها وأغراضها قد تفاعلت مع الحياة، وتجاوبت مع ظواهرها المختلفة، فكانت المرآة المجلوة التى صورت فى دقة وَأمانة، أبعاد ومناحى الحيوات: السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، وما نبا شىء ما من ظواهرها عن أقلام الأدباء فى عصر

---

(١) راجع الأدب فى العصر المملوكى الجزء الثانى. د. محمد زغلول سلام.

المماليك؛ وكانت فى هذا أسعد حظاً من الشعر؛ وعلى الرغم من ذلك فلم تصل الكتابة إلى ما كانت عليه فى ظلال العباسيين.

٤ ـ الخطابة:

انتابها واعتراها الوهن فى العصر المملوكى، فخلت من البراعة الظاهرة، والقدرة على الارتجال والابتكار، وغلب على الخطباء تقليد من سبقهم، وجرت العادة بأن يلقى الخطباء خطباً من إنشاء غيرهم.

وقد وقفت الخطب عند حد الخطب الدينية، وكثرت فيها الألفاظ المكررة، والتعابير المعادة، وازدحمت بالاستشهاد من القرآن الكريم والحديث الشريف؛ وقلما تطرق الخطباء إلى موضوع سياسى أو اجتماعى.

وإليك نموذجاً تقف منه على سياق الخطب فى عصر المماليك: خطب الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى[1] (المتوفى ٧٠١هـ) فى مصر، فقال:

«الحمد لله الذى أقام لبنى العباس ركناً وظهيراً، وجعل لهم من لدنه سلطناً نصيراً، أحمده على السراء والضراء، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ، وعلى آله وصحبه، نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه، وكاشف غمه، وعلى السادة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعلى بقية الصحابة والتابعين، لهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) هو بالطبع غير الحاكم بأمر الله الفاطمى.

أيهـا الناس: اعلمـوا أن الإمــامـة فـرض من فـروض الإسـلام، والجهادمحتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، فشمروا عن ساق الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد ﴿ واتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا وأطيعوا، وأنفقوا خيرا لأنفسكم ﴾، ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾... ﴿ فبادروا عباد الله إلي شكر النعمة، وأخلصوا نياتكم تظفروا.. جمع الله علي التقوي أمركم، وأعز الإسلام نصركم، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ﴾.

إن الأدب مرآة لما يدور فى الحياة ويضطرب، وهو أجلى تعبير عن حياة أمةٍ فى وجهيها: المشرق والعابس.

الحلقة التاسعة

خصائص النثر الأدبى

فُتن أدباءُ العصر المملوكى بالزينة اللفظية واجترار معانى الأقدمين، وقد فاتهم أنْ حلية الأدب فى الطبع لا فى المحاكاة، وأن قليلاً من الحسن الفطرىّ يزرى بكثير من الحسن المجلوب.. فالألفاظ عندهم عماد الكتابة وسرّ جمالها، وهى لذلك مقدمة على المعانى؛ لقد جنت العناية باللفظ على العناية بالمعنى فصرفتها عنه، فأصيب المعنى إما بالخفاء فى غلالة استعارة متكلفة أو تورية مصطنعة، وإما بالوهن أو التكرار لقلة ما تختزنه العقول منه؛ وأصيبت أجنحة الأخيلة فلم تعد قادرة على التحليق، وأدى حرص الأدباء على اقتناص ضروب البديع إلى تسرب معانى السابقين من بين أيديهم «كقابض على الماء خانته فروج الأصابع».

ومرد هذه الظاهرة المحمومة إلى: ضعف الملكات، وتخاذل السلائق، والعزلة المفروضة على الأدباء بسبب الحروب والفتن، وانحسار مواطن الأدب المتنافسة، واقتصارها على مدن مصر والشام، وكلها تخضع لمؤثرات أدبية واحدة؛ والعزوف عن الثقافة العقلية من فلسفة ومنطق وجدل، بالإضافة إلى أثر الذوق العام وذوق النقاد الخاص، فكلاهما لا يهتزان إلا لهذه الصناعة، ولا يريان وجهاً من وجوه الإبداع سواها. من هنا حاول أدباء العصر أن يسدوا نقصهم بهذه الحلَى المكتسبة، وما كسبوا منها شيئاً، بل كانوا بالإفراط فيها أشدّ خُسْراً. ومن عجب أن

شبح الثورة على قيود هذه الصناعة، وعلى أغلال الجمود والتخاذل، وإسار التقليد، لم نكد نلمح ومضه إلاعند النويرى: ت ٧٣٢هـ، الذى نعى دخول المدّعين فى وسط المنشئين، قائلاً: «ولعل الكتابة إنما حصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم، ولله درّ القائل:

تعس الزمان، لقد أتى بعُجاب ∴ ومحا صنوف الفضل والآداب

وأتـى بكتّاب لو انبسطتْ يدى ∴ فيهـم رَدَدْتُمهو إلى الكتـّاب»

إلا أن هذه الومضة قد توارت، وهذا الصوت قد تلاشى بصداه، وساد الرجوم نحو مائة عام، فقد عاد الومض والصوت من جديد، فها هو ابن خلدون: ت ٨٠٨هـ، يشدد النكير على المفتونين بهذه القيود، ويجاهر بالدعوة إلى سلامة الأساليب من أوزار الصناعة و«القلقشندى: ت: ٨٢١هـ» يلحى باللائمة على المماليك لعدم إلمامهم بمقاصد العربية «حتى صار الفصيح لديهم أعجم، والبليغ فى مخاطبتهم أبكم، ولم يسع الآخذ من الصناعة بخط إلا أن ينشد:

وصـناعـتى عـربـية وكـأننى...

ألقــى بأكثـر مــا أقـول الرومـا

فلمن أقول؟ وما أقول؟ وأين لى...

فأسيرَ، لا بـل أيـن لـى فأقيمـا»

وفى النهاية أقول: لم يعد مفهوم الفن فى تعابير أدباء العصر جودة فى التعبير، وأصالة فى اختراع المعانى، وعفوية فى اللفظ، ولم يعد التلاحم الفنى بين الفكرة والصورة الأدبية بادئ الملامح، ونأت لذلك عن أوصال الأدب الحيوية، وأقفرت أوديته من المائية..

ولنا ـ بعد هذه الجولة أن نعرِّج على خصائص النثر الأدبى بشىء من التفصيل والاستدلال.

اتسم نثر العصر المملوكى بسمات وخصائص من أهمها:

١ ـ ذيوع الروح الدينية: وهذه الخاصية إنما جاءت نتيجة مباشرة لثقافة العصر وطابعها الدينى، وتتجلى لنا هذه الخاصية فى مناحى كثيرة، من بينها:

أ ـ مقدمات الكتب ومفتتحات الرسائل وتضاعيفها، فما منها إلا وافتتح بالحمد لله عز وجل، والثناء عليه وذكر آلائه والشكر عليها، واستمداد القوة والعون منه، ثم الصلاة والسلام على نبيه ورسوله، ـ كما بدالك فيما قدمنا ـ وهذه الصبغة الدينية لا تكلف فيها، لأنها فطرة العصر، والنتيجة المباشرة لثقافته الدينية الرائجة.

ب ـ الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف[١] إذ انعكست العناية بهما فى هذا العصر على صفحات أدبه، وإذا كان الأدباء والخطباء فى العصور السابقة قد أغرموا بالاقتباس، فإن أمره قد بلغ ذروته، فأضحى ظاهرة أدبية فى عصر المماليك، حيث عوّل عليه الأدباء، وأعدوا له العدة، فقد وجدناهم يحصرون الآيات والأحاديث التى تدور معانيها فيما يتناولون من موضوعات، وفيما يكتبون من رسائل، وحفظوها، لتسهل عليهم عند مناسبتها، فكانوا يتبارون فى كثرة ما

---

(١) يعنى: أن يدخل الكاتب فى كلامه بعضاً من نصوص القرآن والحديث استطراداً، دون أن ينبه إلى ذلك.

يقتبسون، ويتذاكرون هذا حين يجتمعون، يؤيد هذا ما حدّث به «ابن الأثير» عن نفسه، فى كتابه «المثل السائر» إذ يقول: «كنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف حديث، تدور كلها فى الاستعمال، وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين، فكنت أنهى مطالعته فى كل أسبوع مرة. حتى دار على ناظرى وخاطرى ما يزيد على خمسمائة مرة، وصار محفوظاً لا يشذ منه عنى شىء» ومن منطلق غرام الأدباء بالاقتباس ألف ابن غياث الدين القاضى كتابه «أساس الاقتباس» وقد سقت لكم بعض نماذج الاقتباس فى رسالة ابن حبيب لوصفية[١]، وفى مناظرة السيف والقلم لابن نباتة المصرى، ومن نماذجه أيضاً ما جاء فى قول الشهاب الحجازى، فى دمّله الذى عاقه عن حضور الجماعة فى العشر الأواخر من رمضان: «ترانى كما جن الليل سلّسلْتُه بالدموع، ونحل جسمى فى هذه العشر ليالى لعدم المطعم والهجوع، والواقع أن البكاء ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾[٢] فأقسم بالفجر وليال عشر[٣] لقد فطر هذا الصيام قلبى... ورميت بالنوى فطار لبى، وأعظمَ[٤] من لا يعرف الألم، ولا يفرق بين البرء والسقم، إذ لم يرنى مع الساجد والراكع، ولا جمع بينى وبينه فى هذا الشهر جامع، وقال لى: مثلك يفرّط

---

(١) أى رسالته فى وصف السفينة والبحر.

(٢) الآية (٧) من سورة الغاشية.

(٣) اقتباس: من قول الله تعالى فى مقام القسم: «والفجر وليال عشر» الآية (١) من سورة الفجر.

(٤) أعظم: استعظم واستغرب.

فى هذه العشر، وقراءة ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾[1] فلما رأيته جاهل دائى تلوات له: ﴿سلام هي حتي مطلع الفجر﴾[2].

٢- شيوع السجع وغلبة ضروب البديع:

غدا السجع فى عصر المماليك الإطار اللفظى السائد لفنون الكتابة. وتَبايَنَ الكتاب إزاءه، فمنهم من سنحت له ملكاته بإيراده فى قالب وسمت رائقَيْن، ومنهم من قعدت به همته، فتكلف السجع وأساء استخدامه، ولم يكن السجع وحده محط اهتمام كتاب العصر، وإنما ألحوا على ضروب البديع المختلفة، من طباق وتورية وجناس ومراعاة نظير وغير ذلك، فتبذّلوا فى اللفظ، وتوغلوا فى الصنعة، واستجازوا الخروج عن الإعراب، والبعث بالمعنى، إذ حال ذلك دون تورية أو سجعة أو جناس، حتى بات أديب ذلك العصر (بهلوانا) يجيد اقتناص ضرورب البديع، مثقلة بقيود اللفظ، بعيدة عن أجواء الخيال الفكرى والتعبير الروحى، ولشيوع البديع ألفت فيه الكتب، ومنها كتاب «جنان الجناس» لصلاح الدين الصفدى، ونماذج هذه الخاصية كثيرة، فمما قاله الصفدى فى وصف بستان: «والماء قد رقّ وراق، وتسلسل وهو فى الإطلاق، وجرى وتكسر، وصفاً ولم يتغير، وصاحبَ النسمات وحالفها، وقاطع الأغصان وخالفها، وأتته الرياح للزيارة من شعابها وهضابها، وسرق حلى الأغصان فضمها فى صدره وجرى بها» والواقع أن حرص الأدباء على أفانين البديع يعود إلى: انتهاجهم طريقة القاضى الفاضل (٥٩٦هـ) المبنية على السجع الطويل،

(١) الاية (٣) من سورة القدر.
(٢) آخر سورة القدر.

الكثير الفقرات، إلى جانب الجناس والتورية وما إلى ذلك، وقد أجاد الفاضل لقوته الأدبية فى تصريف القول، وموهبته الفنية فى تنويع الأساليب، أما الذين نهجوا نهجه فقد تعمدوا الإتيان بالمحسنات، وجشّموا أنفسهم عناء الوصول إليها، مهما كلفهم الأمر من شطط، ولحرصهم على الزخرفة كانوا يحتالون، فيمهدون لها برصف الألفاظ، وقد كان هذا يسلمهم - بطبيعة الحال - إلى الإطناب الملّ والإسهاب المخل؛ فضلاً عن أن كتاب العصر المملوكى - فى معظمهم - ما كانوا يتمتعون بالقوة الأدبية، التى كان يتمتع بها القاضى الفاضل فسقطوا، وجاءوا فى كتابتهم بسخيف الكلام ومسترذل الأساليب، ولم يرعوا حق الكلام فى مطابقته لمقتضى الحال، وعجزوا لذلك عن الكلام المرسل، لبُعْد أمده فى البلاغة، وجروا وراء المحسنات، حتى غدا الجمال الفنى فى الأدب رهنا بالدندنة اللفظية والمحسنات البديعية، ولو لم يستقم فيه المعنى، أو تسلم الفكرة، ومن ثم وصل الأمر ببعضهم إلى اعتبار الغموض والتعقيد والالتواء أمارة النبوغ الفكرى والتفوق الأدبى.

ولعل مردّ ذلك إلى:

أ - وجود كتاب فى الدواوين يجهلون أصول الإنشاء، إذ اكتفوا من الكتابة بمظهرها وأدواتها، وخاصة بعد مطلع العصر المملوكى بمدة، وهذا ما جعل «النّويرى (٧٣٢هـ) يجأر بالشكوى فى قوله: «وقد اتسع الخرق فى ذلك، ودخل فى الكتابة من لا يعرفها ألْبَتّة، وقد بلغنى عن من أدخل نفسه فى الكتابة، وتوسل إلى أن كتب فى ديوان الرسائل أنه كان لا يحسن كتابة ما يُملى عليه، فضلاً عن إنشاء الكلام الجيد»، وهذا الشىء

نفسه هو ما دعا «القلقشندى» (٨٢١هـ) إلى تأليف كتابه «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» ليدل قومه على سبيل الرشاد فى الاستعداد للكتابة والتأهب لها.

ب ـ تحول الذوق ـ فى عصر المماليك ـ إلى الهندسة المعمارية والزخارف والنقوش، مما كان له أثره الواضح فى نفوس أدباء العصر ووجداناتهم، فمالوا إلى المبالغة والتهويل، وصبغ الأساليب بأصباغ البديع، وتلوينها بزخارفه، فلقد تحولت البيئة إلى هذه الوجهة الجمالية المحضة، وكان العصر عصر الحلية والزينة فى كثير من مناحى حياته، فحاكى الأدب عصره، فاستحال رجعاً لصداه، وصورة دقيقة لهواه. إلا أن نفراً من كتاب العصر لم يرقهم هذا التحجر الأدبى، فرفضوا القيود، ونفضوا الأغلال، ودعوا إلى الكتابة بأسلوب جديد، متحرر من إسار التقليد، من هؤلاء: ابن خلدون (٨٠٨هـ) فى مقدمته، والقلقشندى فى «صبح الأعشى».

٣ـ المبالغة فى ألقاب التفخيم، والإطالة فى الرسائل:

تفنن أدباء هذا العصر فى ألقاب التفخيم، ونوعوا فيها، حتى جعلوا لكل ذى منصب لقباً، فتشعبت الألقاب، ورغبة فى المبالغة فى دلالتها ألحقوا بها ياء النسب، فقالوا فى القاضى والصدر والشريف: القاضوى والصدرى والشريفى.

فأثقلوا بذلك الألفاظ وغللوها، وألزموا الناس بما لا يلزم فى شرعة الإنصاف، ومنهاج الأدب الرفيع. ثم إن معظم رسائل العصر اتسمت بالإطالة وتميزت بالإسهاب، حتى إن رسالة (ابن عبدالظاهر) التى

يُعارض فيها (القاضى الفاضل) بلغت تسعمائة وخمسة وثمانين سطراً، غير أن مبعث الإسهاب لم يكن دائماً التكرار والترادف، وإنما كان فى الغالب، محاولة للتجديد فى المعانى، واستقصاء الفكرة من جميع جوانبها، كما فى رسالة (ابن تيمية) إلى ملك قبرص الصليبى، والتى بلغت اثنتين وعشرين صفحة، وتقوم على النصح.

٤- ذيوع التورية بمصطلحات العلوم:

كثر هذا الاتجاه عندهم فى النثر الأدبى وذاع، إذ أن الكاتب يطلق المصطلح العلمى فيقفز إلى الذهن معناه المعروف فى ساحة مادته العلمية (من نحو أو صرف أو فقه وما إلى ذلك) فى الوقت الذى يريد به الكاتب معنى لغوياً، ومن هنا يكون للفظ معنيان: معنى قريب، هو المعنى الاصطلاحى، - المعدول عنه - ومعنى بعيد، هو المعنى اللغوى - المعدول إليه - وهذا ما يسمى عند علماء البديع بـ «التورية» وذيوع هذا اللون البديعى دلالة على الازدهار العلمى، وتألق حركة التأليف، والعناية الجادة بجمع الكتب والموسوعات، فى عصر مفترى عليه من كثير من المؤرخين الذين جعلوه بداية عصور الانحطاط، ولو أنصفوا... لوصفوا هذا العصر المملوكى بالعصر المتماسك وأرجئوا بداية عصور الانحطاط إلى العصر العثمانى؛ من نماذج هذه الخاصية قول محى الدين بن عبدالظاهر فى إحدى رسائله التى وشّاها بحلل التورية: «أدام الله نعمة مولاى، ولا زال علَم علِمه مرفوعاً أبداً، وبناء مجده منصوباً يخفض العدا، ولا برحت أقلامه لأفعال الشك جازمة. ولأعدائه متعدية، ولآرائه لازمة، أما بعد: فإن فلاناً حضر وادعى أنه رخم فى غير النداء، وجزم

والجزم لا يدخل فى الأسماء، واستثنى فى غير موجب فخفض، والخفض ليس من أحكام الاستثناء، وذكر أن العامل الذى دخل عليه منعه من الصرف ولزمه لزوم البناء، واجتمع معه فى الشرط وأفرده بالجزاء، والمأثور من مكارم مولانا نصب محله على المدح لا على الإغراء، ورفع اسمه المعرَّى من العوامل على الابتداء، ففيه من التمييز والظرف ما يوجب للعطف، ومن المعرفة والعدل ما يمنعه من الصرف، لا زال مولانا بابا للعطف والصلة، ومآثر مكارمه متصلة لا منفصلة».

٥ ـ التضمين الشعرى:

كان الكتاب فى المعظم الغالب يضمّنون ما يكتُبون أبياتاً شعرية، وغالباً ما كانوا يوردون الشعر فى مستهل الرسائل، وقد يأتى الشعر فى تضاعيفها، وجدير بالذكر أن معظم هذه الأشعار من نظمهم أنفسهم، وليس هذا بغريب، لأن معظم أدباء العصر المملوكى كانوا يجيدون نظم الشعر إلى جانب فن النثر. ولعلك وقفت على هذه الخاصية من خلال ما قدمنا من نماذج. وبعد: فقد حان الوقت لندلى برشائنا ودلائنا فى عيون الشعر.

الحلقة العاشرة

الشعـــر والشعـــراء

«ظواهر عامة»

على الرغم من تبدّل الأحوال، وتغير الأوضاع - السياسية والاجتماعية والفكرية - فإن مواكب الشعر لم تتوقف أو تنقطع، ولم تونق المنية على الشعر فى عصر المماليك، إذ ما فتئ الناس يتداولونه ويتذاكرونه، وما برح الشعراء يعالجون قرضه، ويغرصون وراء درره؛ وكيف لا وهو تراث العرب الخالد، وهو هالة السحر الحلال التى تحف بالشاعر العربى، وإكليل الغار والمجد الذى يتوّج هامته؟! لهذا ظل الشعر أيام المماليك محتفظاً بجانب من مكانته التقليدية، التى كان يتبوأها يوم كان الخلفاء والملوك والولاة تترنح أعطافهم لتلك الديباجة العربية؛ ولما كان الشعر أول ما يصاب من مظاهر الأدب لأنه أدقها، فقد بهتت صورته، وتقلصت مكانته، وانحسر عنه مدّ التألق الذى كان له فى ظلال الأمويين والعباسيين، الذين كان الشعر يجرى فى دمائهم سليقة، والذين كانوا يتذوقون، ويطربون لوقع جرسه الأخّاذ، فيغدقون على الشعراء ويفيضون، واللهى تفتح اللّها[1].

يكثر الطير حيث ينتثر الحب ... وتغـشى منـازل الكـرمـاء

(١) مثل: عربى... واللُّهَى: جمع لُهية بضم اللام، وهى أفضل العطايا وأجزلها. واللهاء: جمع اللهاة، وهى اللحمة المشرفة على الحلق، وتجمع على لهوات ولهيات ولهى ولهاء.

أما المماليك فلم يُولُوا الشعر عناية تذكر لأنهم جند، طبعتهم الجندية بطابعها، وعبثا تحاول الروح الأدبية أن تجد سبيلها إلى نفوسهم، ولأن مُعظمهم ما كانوا يتذوقون الشعر، ففترت نظرتهم له وكلَّت، وضنَّت أيديهم على الشعراء وشحَّت، فلم يجد الشعر من معظم سلاطين المماليك وليًا ولا نصيراً، فانخفت صوت طائره بين أغصان مجدبة، وتطامنت منزلة الشعراء؛ كذلك فإن سلاطين المماليك قد عزفوا عن الاختصاص بالشعر، فلم يكن لكل سلطان شاعر، يذيع محامده، ويترجم عن آماله ونوازعه، كما كان الحال من قبل، مع الرشيد والمأمون وسيف الدولة والمعز لدين الله، مثلاً، ولم يحدث التاريخ أن أولئكم السلاطين قد اجتذبوا إلى بلاطهم شعراء أو أنهم رصدوا لهم درًا ولا جوهراً.

وما أوقع قول السراج الوراق:

وربّ الشعر عندهمُ بغيض .·. ولو وافى به لهمُ حبيب[1]

بيْد أن قلة قليلة من سلاطين المماليك كانوا ينزعون إلى سماع الشعر، كالمنصور قلاوون، وابنه الناصر، والسلطان حسن، والمؤيد شيخ، وقانصوه الغوري.

وكلا الأخرين كانا يتذوقان الشعر وينظمانه.

وهم إن كانوا قِلّة ـ كما ترى ـ فإن الكرام قليل.

لهذا اضطر الشعر إلى الابتعاد عن حلقة الحكام والرؤساء، وأدار ظهره لقصورهم، التي لم يجد فيها سوقاً رائجة، فابتعد عن السّاسة.

---

(١) المعنى البعيد في التورية: أبو تمام حبيب بن أوس.

وانحدر عن مكانته السياسية، فالشعر ـ كما يقولون ـ يكثر عند الطمع، وانزوى شعر المديح يبكى من ضنّ المماليك، وولى شعراؤه وجوههم عن معاناة الشعر الرسمى، إلى التعبير عن رغبات نفوسهم من الغزل والوصف وما إليهما..

فمنذ النابغة وزهير والشعراء يروجون ويجيئون بجُر الحقائب، يخلعون على ممدوحيهم أطايب المدائح، ويخلع عليهم ممدوحوهم أطايب المنائح، لينحسر هذا المدّ الأدبى، وتتداعى مكانة الشعر والشعراء على صخور المماليك، إذ لم يجد الشعراء مجال القول الفسيح ولا بدر المال ولا العيْش الرغد، وها هو ابن نباتة شيخ أدباء العصر يقول شاكياً:

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتبا

وإنما العار فى دهرى وفى بلدى

هذا كلامى، وذا حظى، فياعجبا .·. منى لثروة لفظ وافتقار يد

ثم كان ضغثاً على إبالة[1] ذلك الميل الذى بدا من المماليك إلى الزجل ـ الشعر العامى وحب سماعه، لأنه أدنى إلى فهمهم، ولا يجهدهم التعرف على معانيه، ولهذا قربوا الزجالين وشعراء العاميّة؛ وقد سوّلت هذه الحالة الأمارة بالسوء لكل شعرور دخيل أن يندس بين الشعراء، فكثر السقط السخيف من الشعر مما يترفع عنه المبتدئون فيه، فزاد الطين بذلك بلّة؛

والمعروف أن العاميّة قد فتح بابها إلى الأدب الفصيح شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى، فى عصر الأيوبيين، أمثال:

---

(١) أى بلية على أخرى.

البهاء زهير، وظافر الحداد، وابن أبى الأصبع، وها هو ذا الشعب فى ظل المماليك ـ وهو البيئة التى نبت منها الشعراء ـ جاهل غامض العاطفة، غلبت عليه عاميته، وكأنه يجارى سلاطينه فى هذا الاتجاه، وها هى ذى حياته ملآى بالخيرة والاضطراب والحوادث العنيفة المتتالية، فلا معين على الشعر الراقى أو سماعه.

وقد أدى هذا التجاهل للشعر الأصيل فى أوساط الحكام والمحكومين إلى زهد الشعراء المجيدين فى الشعر، إلا ما يكون تملحاً، أو دعابة، وما أشبهها، لأنهم لم يحبوا لأنفسهم أن يتبذلوا القول لدى من لا يقدرونه وفى هذا يقول ابن دقيق العيد:

وزهدنى فى الشعر أن سجيتى .·. بما يستجيد الناس ليس تجود

ويأبى لى الختم الشريف رديّه .·. فأطرده عن خاطرى وأذود.

ويقول أبو الحسين الجزار فى جهل المماليك بالشعر وعدم فهمهم له:

وكم قابلت تركيًا بمدحى .·. فكاد لما أحاول منه يخنق.

وتسقط حرمتى أبدا لديه .·. فلو أنى عطستّ لقالك «يشمق»

ومع تلك الروح السائدة لدى الشعراء من الضيق، فقد وجدوا فى مواقف المماليك العسكرية مناسبات، تجود فيها القرائح وتفيض، على غرار ما رأينا عند الشاعر إبراهيم الغزى فى قوله:

فى فتية من جيوش الترك ما تركت .·. للرعد كرّاتهم صوتا ولا صيتا

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة .·. حسنا، وإن قوتلوا كانوا عفاريتا[1]

---

(١) المختصر فى تاريخ البشر لأبى الفداء ٤/٣، نقلاً عن الأدب المملوكى للدكتور محمد سلام ١٠٧/٢.

ومن هذه الظواهر: ظاهرة البؤس والحرمان والمسْغبة التى حاقت بمعظم شعراء العصر؛ وقد شكا بعض مشهوريهم الفقر والجوع وسوء الحال، فها هو البوصيرى (ت: ٦٩٥هـ) يقول:

إليك نشكو حالنا إننا ∴ حاشاك من قوم أُولى عسره

فى قلة نحن ولكن لنا ∴ عائلة فى غاية الكثرة

صاموا مع الناس ولكنهم ∴ كانوا لمن أبصرهم عبره

لهم من الخُبز مسلوقة ∴ فى كل تشبه النشره

أقول مهما اجتمعوا حولها ∴ تنزّهوا فى الماء والخُضرة

وأقبل العيد وما عندهم ∴ قمح ولا خبز ولا فطره

فارْحمهمو إن أبصروا كعكة ∴ فى يد طفل أو رأوا تمره

تشخص أبصارهم نحوها ∴ بشْهقة تتبعها زفره

فكم أقاسى منهمُ لوعة ∴ وكم أقاسى منهمُ حسره

والقصيدة على تواضعها الفنى، وانحدارها فى مهاوى الشعبية فى التعبير، مفصحة عن حاله وعياله وسوء منقلبه. ويتبدى مثل هذا فى قصيدة ابن دانيال (ت: ٧١٠هـ) التى منها:

أصبحتُ أفقرَ من يروح ويغتدى ∴ ما فى يدى من فاقة إلا يدى

فى منزل لم يحو غيرى قاعد ∴ فإذا رقدت رقدت غير ممدد

ملقى على طراحة فى حشوها ∴ قمل كمثل السمسم المتبدّد

والفأر يركض كالخيول تسابقت ∴ من كل جرداء الأديم وأجرد

هذا ولــى ثـوبٌ تــراه مرقــعا .·. من كل لون مثل ريش الهدهد

وممن أحرقتهم أشعة الفقر والهوان ابن نباته (ت: ٧٦٨هـ) وهو القائل:

فكفى من وضوح حــالى أنــى .·. فــى زمانى هــذا من الأدباء

وهو القائل أيضاً:

أسفى على الشعراء إنهمُ علــى .·. حال تثـير شمــاتة الأعــداء

وفقراء الشعراء كثيرون؛ لهذا اندفعوا يجدّون وراء تكاليف الحياة، فانبلجت ظاهرةُ تقلّص شأن الشعر وهوانه على الشعراء أنفسهم، إذ يئسوا من رواج أدبهم، الذى كسدت تجارته، وبارت بضاعته، فاندسوا فى غمار الناس، وانصرفوا إلى حِرَفهم، سدًا للحاجة وحفظاً للرمق، فكان منهم الكحال والجزّار والخياط والدّهان والحمامى والوراق، ومنهم من انصرف إلى الكتابة فى ديوان الإنشاء أو الدواوين بعامة، وقد صور هذه الظاهرة شعراء كثيرون، فهذا أبو الحسين الجزار المصرى (٦٧٩هـ) يقول بعد أن انتقل من القصابة ـ الجزارة ـ إلى التكسب بالمديح، فلم ينل فيه حظاً:

لا تعبــــلى بصنــعة القــصاب .·. فهــى أزكــى مــن عـنبر الآداب

كان فضلى على الكلاب فمذ صــرت .·. أديبــــا رجوت فضــل الكــلاب

ثم إنه عاد إلى الجزارة وقال:

كيف لا أشكر الجزارة ـ ما عشت ـ حفاظا وأهجر الآدابا؟!!

وبها صارت الكلاب ترجينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا؟!

ويأسى سراج الدين الوراق (ت ٦٩٥هـ) لاحترافه الشعر قائلاً:

مالى ونظم الشعر باتت صبوتى ∴ والناس قد رغبوا عـن الآداب
أأقــوله عتـبا بلا سبـب لـه ∴ والـشعر مبنىّ على الأسـباب

ويقول محمد بن دانيال الموصلى (٧١٠هـ) فى تكسبه بالتكحيل:

يا سائلى عن حرفتى فى الورى ∴ وصنـعتى فيهـم وإفـلاسى
ما حـال مـَن ردهـمُ إنفاقـه ∴ يأخذه من أعْينُ الناس؟!![(١)]

ويصور عمر بن الوردى المولود فى معرة النعمان سنة ٦٨٩هـ، والمتـوفى فى حلب سنة ٧٤٩هـ، يصور كساد الآداب فى العصر المملوكى، فى شكواه التى منها:

أهل الفضل والآداب قد كسدوا ∴ والجاهلون لقد قامت لهم سوق!!

وعلى الرغم من هذا كله فإن جذوة الشعر لم تَخْبُ، وإنما ظلت متّقدة، لتظل حلقات السلسلة الشعرية على مدى التاريخ متصلة.

ومما يلْفت الانتباه ظاهرة كثرة عدد الشعراء كثرة مفرطة، بحيث يعسر على باحث أن يحصيهم عدًا؛ فلو أبصرْت كتاباً تعرض لشعراء العصر ـ كخزانة الأدب لابن حجّة، أو خلاصة الأثر للمحبى، أو سلك الدّرر للمرادى ـ لهالكَ ما يطالعك من أسماء الشعراء فى الدولة المملوكية؛ على أن هذه الكثرة العدديّة لا تدل على تمكن الشعر من النفوس ورواج جيده، إنما تدل على الغوغائية واجتراء المتشاعرين على موائد الشعر؛ مما أدى إلى تمييع حركة الشعر الخالص الهادف إلى الإبداع والتحليق؛ ولعل مرد هذه الظاهرة العددية إلى:

---

(١) فى الشطر الأخير تورية، يأخذه أجرا على تكحيل عيون الناس ومداواتها، أو يأخذه من عيونهم بلا رضا منهم.

* سحر هذا الفن وأثره فى نفس صاحبه، وفى نفوس الناس.

صيرورة الشعر ظرفاً أو حلية، لا مهنة، فقد قل الشعراء المحترفون، المنقطعون للشعر، إلا أن الشعر كان يجرى على الألسنة على أنه لون كلامى، لابد للإنسان المثقف أن يدلى فيه بدلْو، طال رشاؤه أو قصر.

* اجتراء كثيرين – ممن لا يجيدون غير إقامة الوزن – على قول الشعر.

* السطحية أو الركاكة التى انحدر إليها الشعر.. لذلك ندر أن تجديين شعراء العصر – على كثرتهم – شاعراً مثّل قمة من القمم الإبداعية، فما أشبه هذه الكثرة بالسفح، تنتشر فوقه آلاف من الحصى، تتشابه فى جوهرها، كما تتماثل فى شكلها وحجمها، لقد أضحى الشاعر قانعاً بالدّون، أما التطلع إلى القمم الشوامخ تطلّع النّسور، والهدف إلى إبداع ما لم يبدعه الآخرون فذلك ما كاد يتلاشى فى العصر. ولهذا كثر الشعراء.

أما ظاهرة تمكن روح الغربة من شعر العصر، فظاهرة جديرة بالوقوف عندها مليا، وقد تنبه إليها، ونبه عليها الدكتور محمد زغلول سلام[1] إذ أماط اللثام عن وجهها فسفرت، ونزع حجبها وأقنعتها عن قسماتها فبهرت.

هذه الروح تجرى فى أوصال شعر العصر، ففيه يصرخ شعور الشاعر بالاغتراب فى عصره وبين قومه، وعلى أرضه؛ وها هو ذا ابن خلكان يروى هذه الأبيات:

---

(١) فى كتابه: الأدب فى العصر المملوكى ١٠٧/٢ وما بعدها.

وما ذات وُرْق فى فروع أراكـه .·. لها رنّة تحت الدّجـى وصدوح

ترامت بها أيدى النّدى وتمكّنت .·. بهـا فرقة من أهـلها ونـــزوج

فحلت بزوراء العراق وزُغْبهـا .·. بسعفـانَ، ثاو منهـمُ وطلـيح

تحنّ إليهم كلـما ذرّ شـــارق .·. وتسْجَعُ فى جُنح الدّجى وتنوح

إذا ذكرتهم هيّـجت ذا بلابـــلٍ .·. وكادت بمكتوم الغــرام تبــوح

بأبْرحَ من وجدى لذكراكمُ متى .·. تألـــّق بــرق أو تنــسّم ريح

وهى تكشف عن هذا الإحساس، وهو هنا إحساس ذاتى، لكنه حين يتكرر يخرج عن نطاق الذاتية إلى الظاهرة العامة.. وربما رجع الإحساس بالاغتراب إلى ما رآه الشعراء فى واقعهم من متناقضات الأوضاع ومرارة الصراع، وما هيمن على المجتمع من سلبيات.. مما أدّى إلى الغربة النفسية، ومن ثم الحنين والتطلع إلى الإنقاذ والعودة إلى ركن الماضى الأمين، فى عصر الرسالة الأوّل، حيث تشرق أيامه فى وجداناتهم، وتحن إليهاأرواحهم.

الحلقة الحادية عشرة
شعر العصر المملوكى
بين الضعف والقوة

لا ننكر غلبة التقليد وتقلص الاختراع والتجديد فى الوفرة من شعر العصر؛ فقد نفخ فيه من روحه العاجزة عن أن تنفحه بالجديد، فضعف الشعر فى كثير من مناحه، وأفقرت أودية معانيه، واجدبت مطارح أخيلية، وسهل على الشعراء ارتياد معانى القدماء.

لكن هيهات هيهات!! لما ادعاه بعض الباحثين من استيلاء الضعف على شعر العصر برمّته، فإن الضعف قد أتى على بعض هذا الشعر، فى الوقت الذى تمكنت القوة من بعضه الآخر. فليس من الممكن خلاء بيئة الشعر من شعراء مجيدين.

والواقع أن هناك أسباباً أدت بالشعر إلى الذبول والضعف؛ منها:

انقباضُ أيدى أكثر سلاطين المماليك وأمرائهم عن مكافأة الشعراء، وزهدهم فى الاختصاص بالشعر. وانزواءُ أسباب فراغ البال التى تدفع بلابل؟ الشعر أحياناً إلى التغريد. واشتغال الشعراء بأعمال وحرَف يرتزقون منها. تقليد شعراء العصر لكتابه الذين جروا فى مضمار القاضى الفاضل. وإكثار الشعراء لذلك من المحسنات فى شعرهم وظهورُ الزّجل الذى زاحم بنماكبه الشعر الفصيح على منابره. لقربه إلى الأفهام.. والنموذج الذى ذكرناه آنفاً للبوصيرى، والذى يعج بالتعابير العامية

المرذولة؛ يفصح عن الضعف الذى انتاب هذا الشعر، ومثله قول ابن الوردى (ت: ٧٤٩هـ):

قلت وقد عانقته .·. عندى من الصبح قلق

قال: وهل يحسدنا .·. قلت نعم، قال: انفلق[١]

وقد ذَمّ حسين الجزار (٦٧٩هـ) هذا الوضع الذى تردّى إليه الشعراء **بقوله:**

أتيت لبابل أرجو الغنى .·. فأخرجنى الضرب عند الدخول

وقوله:

أكلف نفسى كل يوم وليلة .·. هموماً على من لا أفوز بخيره

لقد أقْحلت بيئة الشعر فى عصر المماليك وأجدبت، وخلت من العناصر المغذّية لنبات الشعر وأقفرت؛ فأدت هذا الحال بالشعر إلى: فقر فى المعنى وجدب في الخيال، واعتياد التقليد، وانتحال معانى شعر السابقين وبخاصة شعر العصر العباسي. وهذا يعنى: نضوب قرائح شعراء العصر من الأفكار الجديدة، والمعانى المبتكرة، وكأنها لم تعد قادرة على التوليد. ومن ثَمّ لجّ الشعراء فىَ ترسمُ معانى القدماء ورصْدها، وسرقة المعنى الذى يروقهم أو يعجبهم، ولسان حالهم يقول[٢]:

وفتى يقول الشعر إلا أنه .·. فيما علمنا يسْرق المسروقا

---

(١) انفلق: المعنى الأول عربى فصيح وهو انبلج، والثانى عامىّ معروف وهو دعاء.

(٢) انظر «خبز الشعير» لابن نباتة.

وليس معنى ذلك أن الساحة الأدبية قد خلت من الشعراء المجيدين، أو أن دواوين الشعر قد أقفرت من الفن الرفيع!! فالطُّفَيْلِيُّون الذين اجترءوا على دولة الشعر، وتَبَجَّحوا بأوسمة القريض، وهم غير أكفاء له، جنوا على رُواء الشعر بمسترذل القول، وعلى بهائه بالسمج السخيف، والعيب فيهم؛ والنصفة والعدل يقتضيان التحرى، فقد كان بين شعراء العصر مجيدون مبدعون، لهم فى التجويد والرفعة حظ لا يجحد، جادت قرائحهم بالروائع، وسمحت ملكاتهم بالبدائع.

لم يكن شعر العصر جميعه ضعيفاً، لأنه إذا كان قد عرضت له عوامل سلبية أدت ببعضه إلى الضعف، فقد واتته عوامل ايجابية دفعته إلى الجودة والإحسان، من هذه العوامل الإيجابية:

* حب هؤلاء الشعراء الموهوبين المطبوعين للشعر، وإكبارهم لهذا الفن الرفيع، فحنت إليه نفوسهم، ومالت قلوبهم. فنظموا درره وغرره، لا طمعاً فى المال ولا رغبةً فى النوال، ففن الشعر قد تملكهم، حتى صاروا من عبيد الشعر، فجادوا وأجادوا؛ إن الشعراء الذين استهواهم فن الشعراء، وخالط شعورهم وقلوبهم يتغنَّون كالطير شجى أو فرح، ويغردون أَزْهَرَ أَيْكُهم أم جفَّ. فالشعر عند هؤلاء المفطورين عليه يصدر عن حبٍ له، واندفاعٍ إليه. ولا يكف أسلاتِهم وألسنَتهم وخواطرَهم عن روائعه مالُ عزّ أو شهرةٌ خملت. وبهذا الحب وهذه النِّحِلة برزت العاطفة حية جياشة فى الشعر، وبانت النفوس الباطنة سافرِة بأخلاقها وهواجسها بين أبياته، وهذا هو الشعر الصادق.

* مجالس الشعراء فى أنديتهم الخاصة، هذه التى كانوا يتطارحون

فيها الشعر، ويتبارون فى عالم القريض، ويسجلون ما يدور فى هذه المنتديات من نظرات نقدية، إلى جانب جيد الشعر، مما أضحى من أعظم ثروات الأدب؛ وقد كان منهم من إذا أعجبه معنى سرقه، وتلطف فى استعماله.

* التنافس المشبوب بين شعراء مصر والشام، فما كان يبتدع شاعر فى مصر شاردة أو ينظم فريدة، إلا وتغلب عليها شعراء الشام بالنقد أو المعارضة حيناً، أو السرقة حيناً آخر، وكثيراً ما كانوا يتقارضون الشعر، ويتفكهون بالمناقضات، ويسليهم التراسل بالأبيات، ولا أدل على ذلك مما كان بين ابن نباته الشاعر المصرى وصلاح الدين الصفدى الشاعر الشامى، ورسالة «خبز الشعر» لابن نباتة ما يدعم أحد هذه الأبعاد؛ على أن الطرائف والمداعبات والمراسلات بين شعراء القطرين كانت تترى، لا تكاد تنقطع، وفى ما فيه من رواج للشعر وثرائه.

* جمال الطبيعة فى مصر والشام.

* رغبة القلة القليلة من سلاطين المماليك وأمرائهم فى سماع الشعر، وقد تجود هذه القلة وتعطف على أهل الشعر، إلا أن جودهم كان أشبه بعارض الصحراء، يلم بها لماماً ثم يودع لا إلى ميعاد، ولعل فى كلام ابن الوردى فى مقدمة ديوانه ما يشير إلى أن الشاعر لا ينبغى أن يؤمّل فى جود المماليك، حين ذكر قول المولى عز وجل: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ ثم أردف قائلاً: وإنى إنما قلت ذلك على وجه امتحان القريحة. وقد خفّف من لوعة الشعر، وأنهض من همة الشعراء أيضاً ما كان يقدمه إليهم بعض الوزراء وأعيان الكتاب من معونة.

* الضنك وشظف العيش والشقاء المحدق ببعض الشعراء المنقطعين للشعر قد أطلق ألسنتهم بروائع الشعر فى الشكوى والحرمان، كما كان من حال: ابن نباتة والشاب الظريف؛ ولا غضاضة، فقد رأينا مثل هذه الأزدواجية الفنية حديثاً عند الشاعر البائس عبد الحميد الديب. لكل هذه العوامل جادت يد الشعر فى عصر المماليك بالروائع، ولا نقول ذلك رَجْماً بالغيب، وإنما الذين يمنعون النظر فى شعر العصر يقفون على هذه الحقيقة، التى لا يجترئ على إنكارها منكر؛ وهاكم نماذج - هى غيض من فيض - تؤيد ما قررنا وتدعمه، يقول الشهاب محمود الحلبى (ت:٧٢٥هـ):

هل البدرُ إلا ما حــواه لثـامها ∴ أو الصبحُ إلا ما جــلاه ابتسامـها

أو النار إلا ما بـدا فوق خـدِّها ∴ سَنَاها، وفى قلب المحب ضرامها

إذا ما نَضَت عنها اللِّثامَ وأسفرت ∴ تقشَّعَ عن شمس النهار غَمامها

تُريك مُحيًّا الشمس فى ليل شَعرها ∴ على قيـد رمـح قـدُّها وقَوامهـا

وحيت فأحيت ما أمات صدودُهـا ∴ وردّت فـرْدَ الـرّوحَ فـىَ سلامها

ويقول صفى الدين الحلِّى (ت: ٧٥٠هـ) مفتخراً بإبراء قومه:

سلى الرمـاح العـوالى عـن معالينـا

واستشهدى البيض، هل خاب الرجا فينا؟!

لمـا سعينـا فمـا رقـت عزائمـا

عمـا نَـروم، ولا خـابت مساعينـا

إذا ادّعـوا جــاءت الدنيا مصــدقة

وإن دَعــوْا، قــالت الأيــام: آمينا

بيــض صنائعنـــا، ســود وقائعنـا

خضـر مرابعنـــا، حمـــر مواضينـــا

ويقول ابن حجة الحموى (ت: ٨٣٧هـ):

يا غائبين تعللنـــا لــغَيبتـــهم ∴ بطــيب عيش، فلا والله لم يطب

ذكرت والكأس فى كفّىّ لياليكَم ∴ فالكأس فى راحة والقلب فى تعب

إن هذه النماذج وغيرها تضع أيدينا على حقيقة مهمة تكمن فى:

أن قرائح بعض شعراء العصر المملوكى قد جادت بالروائع، وفاضت بالدرر والغرر، التى تذكرنا بفخامة الشعر العربى فى عصور ازدهاره الأولى؛ فإن كان بعض النتاج الأدبى فى العصر قد رَكّ وضعف، فإن بعضه الآخر قد رَقّ وقوى..

فلْيتَروَّ الباحثون لأن السرعة لا تعرف الإنصاف..!!

الحلقة الثانية عشرة

فنون الشعر فى العصر المملوكى

إذا ما ولجنا باب دراسة النتاج الشعرى لهذا العصر هالنا كمه الضخم، رغم ضياع كثير منه، جرياً على سنة الحياة فى الإضاعة والإبقاء، ورغم أن جزءاً كبيراً منه لا يزال مخطوطاً. والذى لا شك فيه أن شعراء العصر خاضوا فى أغراض الشعر التقليدية، وأجالوا قرائحهم وأقلامهم فى شتى مجالاتها، وتعلقوا بسائر ضروبها؛ إذ الهيكل العام ما فتئ منظوراً إليه عند هؤلاء الشعراء، وقد كانوا يحاولون جاهدين المحافظة على عمود الشعر العربى المعروف.

لقد ضرب شعراء العصر بسهم فى كلّ فنون الشعر التى نظم فيها الشعراء فى العصور الخوالى، كالمديح والرثاء والغزل والهجاء والفخر والوصف والحكمة والمجون والطِّرد والشعر التعليمى، مما تواضع الباحثون على تسميته بـ «الفنون التقليدية».

كما ضربوا بسهم فى فنون جديدة، كالمدائح النبوية، والمعارضات الشعرية،والألغاز والأحاجى.

غير أن هذه الفنون ما كانت معبرة عن أحوال أصحابها، أو عن حقيقة أحسوا بها، إذ كانت محاكاةً وتقليداً، بكاء فى غير حزن، وضحك فى غير عجب، وغزل بغير حب، يتغزل الشاعر الورع، ويصف الخمر وينبش عن معانيها قبور الدواوين القديمة، وهو عنهما بعيد، ويتحمس وهو لم يشهد ساحة وغى، ويفتخر وهو من باعثه بنجوى.

ومن ثم يتضح لنا أن شعراء العصر المملوكى إذا كانوا مقلدين من جانب، فإنهم مجددون من جانب آخر، ولهذا طغت بعض الأغراض الشعرية على بعضها الآخر، ومنها:

المــديح:

أنبه الأغراض، أكثر فيه شعراء هذا العصر وأجادوا، واتجه على أيديهم وجهتين، أما أولاهما: فإلى المماليك الذين نهضوا بعبء قتال الإفرنج الصليبيين، والتتار، والذود عن حمى الإسلام والدفاع عن حياض العقيدة، فقد التفّ الشعراء حول هؤلاء المجاهدين، وسكبوا بين أيديهم فيض قرائهم المنظومة، من ذلك ما قاله الشاعر جمال الدين الخشاب فى الظاهر بيبرس:

ملك تزينت المماليك باسـمه ∴ وتجمّلت بمديحه الفصحاء

كم للفرنج وللـتتار بـبابه ∴ رسل مُناها العفو والإعفاء

وطريقه لـبلادهم موطـوءة ∴ وطريقهم لبـلاده عـذراء

وما قاله الشهاب محمود فى مدح السلطان الأشرف خليل، عندما فتح مدينة عكا: ومنه:

ما بعـد عكـا وقـد دُكـت قواعدهـا

فى البحـر للشـرك عنـد البـر أرَب

عقيلة ذهبت أيـدى الخُطـوب بـها

دهراً، وشدّت عليهـا كـفُّ مغـتصب

لم يبق من بعدها للشـرك إذ خـرِبت

فى البر والبحر ما ينجى سوى الهرب

كم رامهـا ورمـــاها قبـــله مـــلك

جمّ الجـيوش فـلم يظفر ولـم يُـصب(١)

لم ترض همتهَ إلا الذى قـــعدت .·. للعجز عنه ملوك العُـجْم والعـرب

ليث أبى أن يرد الوجه عن فرَقٍ .·. يدعون رب الـــورى سبحانه بأب

لم يلهه ملكـــه بـــل فى أوائـــله .·. نال الذى لم ينله الناس من الحِقَب

وفى إطار وجهة المدح هذه ينضوى مدح الأصدقاء، وفيه تكمن المشاعر والأحاسيس الذاتية، ومنه ما قاله الشاب الظريف (ت: ٦٨٩هـ) فى محيى الدين بن عبدالظاهر من قصيدته اللامية، البالغ الإحسان والجودة:

ومعـــشر لـم تـــزل للحـرب بيضـهم

حمر الخدود، وما من من شأنها الخجل

يثنى حديث الوغـــى أعطافـــهم طـربا

كأن ذكـــر المنـــايا بينـــهم غـــزل

ضاءت بحسنهم تـلك الخيـــام كـمـــا

ضاءت بوجه ابن عبدالظـــاهر الـــدول

---

(١) إذا كانت قد استعصت على الناصر صلاح الدين الأيوبى، وقد أوضح الشاعر هذا فى قوله:

أدركت ثأر صلاح الدين إذ غضبت .·. منه لسرّ طـواه الله فى اللقب

فالسلطان الأشرف سمىّ صلاح الدين الأيوبى فى اللقب، فهو يلقب بالأشرف صلاح الدين خليل.

توحى إلى كل قـــرطـاس بلاغــتــه

سحر البيان ومــن أقــلامــه الرســل

فلـلعـــداة لـديــه كـل مــا حــذروا

وللعفـــاة عليــه كـل مــا ســألـوا

أضحت يداه لـعقـد الـجـود واســطة

فليس يـدرى لـجـود بـعـدهـا عطـل

ومنه ما قاله ابن نباتة المصرى (ت: ٧٦٨هـ) وهو من الشعر الرائق الفائق:

منْ مُبلغ العُرْب عن شعرى ودولـته

أنّ ابن عبــاد بــاقٍ وابن زيــدونـا

حبَرْتُها فيه زهـراء المعاطف مـــن

أعلى وأنفَـس ما يهدى المجيدونــا

إذا رأيت قــوافيهــا وطلعتـــــه

فقد رأت مقلتـــاك البحــر والنونا

كـأنّ ألفاظها فى سمـع حُســدها

كواكب الرجمَ يحرقْـن الشياطينـــا

أما وجهة المدح الثانية فهى التى اتجهت إلى المدائح النبوية، ومعظمها يعود إلى الروح التى كانت مسيطرة على المجتمع إذ ذاك، وجمود الحركة الفكرية، وانتشار ما عرف حينذاك بالصوفية العامية بين

أفراد الشعب، والاعتقاد الواهى فى الأدعية والبركات وما إليها من الترهات، ولهذا وجدنا شعراء هذا اللون من أمثال: البوصيرى، وابن نباتة، وابن حجة الحموى، يبالغون ويغالون، ويسبحون فى بحرى المبالغة والغلو، فى إسراف وشطط بالغين، من ذلك: ما أجازه البوصيرى لنفسه - فى برادته أو يرعته - أن يصدر حكماً قائماً: فى أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد دان الأنبياء قبل أن يخلق، وأن آياتهم إنما اتصلت بهم من نوره، فى قوله:

وكل آى أتى الرسل الكرام بها ∴ فإنما اتصلت من نوره بهم

فإنه شمس فضل هم كواكبها ∴ يظهرن أنوارها لناس فى الظلم

ومن هذا الغلو وهذه المغالاة ما أصدره ابن نباته من أنه «لولا محمد ﷺ ما كان وجود» فى قوله من لاميته:

لولاه ما كان أرض ولا أفق ∴ ولا زمان ولا خلق ولا جيل

ولا مناسك فيها للهدى شهب ∴ ولا ديار بها للوحى تنزيل!!!

وللبوصيرى مدائح نبوية كثيرة أشهرها الميمية «أمن تذكر جيران بذى سلم» واللامية التى أولها:

إلى متى أنت باللذات مشغول ∴ وأنت عن كل ما قدّمت مسئول

والهمزية التى منها:

كيف ترقى رقيّك الأنبياءُ ∴ يا سماءً ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد حال ∴ سناً منك دونهم وسناء

إنما مثلوا صفاتك للناس ∴ كما مثل النجوم الماء

أنت مصباح كل فضل فما ∴ تصدُرُ إلاّ عن ضوئك الأضواء

كذلك لابن نباتة مدائح، أشهرها: اللامية والرائية، التى أولها:

صحا القلب لولا نسمة تتخطر .·. ولمعة برق بالغَضا تتسعَّر

ومنها:

نبى أتَـمَّ الله صورة فخــره .·. وآدمُ فــى فُخـاره يُتَصـوَّر

تنقل نورا بين أصلاب ســادة .·. فلله منه فى سما الفضل نيِّر

ولغير الشاعرين فى النبى عليه الصلاة والسلام مدائح كُثْر؛ لقد برز هذا الفن بروزاً جعل له وجوداً مستقلاً وأثراً فى الأدب.

وقد أدى ذيوع هذا اللون الشعرى، إلى جانب الرغبة فى المنافسة الأدبية، وإظهار البراعة والتفوق، إلى شيوع فن «المعارضة» والمعارضة هى: أن يعجب شاعر بالجانب الفنى فى قصيدة شاعر آخر- سبقه أو يعاصره - فينظم على غرارها قصيدةً، يلتزم فيها بوزن وقافية القصيدة الأولى، ليظهر براعته وتفوقه، دون أن يقدح فى الناظم الأول.

وكأنى بالشعراء فى عصر المماليك قد أصابتهم حمى التقليد!! فجروا ينظمون على غرار ما يسمعون، بدعوى المنافسة والرغبة فى التفوق، ومن ثَمَّ كثرت «المعارضات فى هذا العصر، ولاقت عناية ورواجاً شديدين، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

أن كثيراً من الشعراء عارضوا قصيدة البوصيرى (٦٩٦هـ)، المسماة «بالبردة أو البراءة» والتى مطلعها:

أمــن تذكُّــر جــيران سلــم
مزجْتَ دمعا جَرَى من مقلة بدم؟!

أم هبّت الريحُ مــن تلقـاء كاظمة
وأومض البرق فى الظلماء من إضم؟!

وعنى شعراء المعارضات هؤلاء بحشو قصائدهم بالمحسنات البديعية، فقد عارض القصيدة «ابن جابر الأندلسى» الذى رحل إلى المشرق، فدخل مصر، واستوطن حلب، ثم رجع إلى الأندلس، فوافته منيته فى «ألبيرة» سنة ٧٨٠هـ، عارضها ببديعية، كل بيت فيها يشير إلى فن من فنون البديع، مطلعها:

بطيبة انـزل ويمّم سيد الأمـم

وانشر له المدح وانثر أطيب الكلم

وعارضها صفى الدين الحلى الذى يعد من رواد فن «البديعيات» بقصيدته التى مطلعها:

إن جئت سلّعا فسَلْ عن جيرة العلـم

واقرّ السلام على عُرْب بـذى سلـم

ثم جاء «عز الدين الموصلى المتوفى سنة ٧٨٩هـ» فنظم قصيدته التى أولها:

براعة تستهلّ الدمع فى العلم ∴ عبارة عن نداء المفرد العلم

ثم جاء بعده «ابن حجة الحموى المتوفى ٨٣٧هـ» فعارضها ببديعيته، التى ضمن مطلعها شطراً من مطلع «الموصلى» إمعاناً فى التقليد، وأولها:

لى فى ابتدا مدحكم يا عـرب ذى سلم

براعـة تسـتهل الدمـع فى العـلـم

بالله سرْبى فسرْبى طلقـوا وطنـى

وركبوا فى ضلـوعى مطـلق السـقم

ثم جاء «جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ» فعارضها ببديعته التى أولها:

من العقيق ومن تذكار ذى سلم ∴ براعة العين فى استهلالها بدم

ثم جاءت «السيدة عائشة الباعونية - الدمشقية - المتوفاة سنة ٩٢٢هـ فعارضتها بقصيدة مطلعها:

فى حسن مطلع أقمـــار بذى سـلم

أصبحت فى زمـرة العشاق كالعـلم

أقـول والدمـع جـارٍ جـارح مقـلَى

والجـار حـــار بعـــذل فيـه مُتـهم

ياللهوى فى الهوى رُوح سمحت بها

ولم أجد روحّ بـــشرى منهمو بهـم

وفى بكائى لحال حـال مـن عـدم

لفقت صبرا فما أجدى لمـنع دمـى

فقد عجّتْ هذه المعارضات بألوان البديع، الذى استبى شعراء العصر، واستهوتهم حليته، فاستعذبوا زينته ووشيه، وكانوا لفنهم مخلصين. وإن لم يلحقوا للبوصيرى غباراً.

ومن الجدير بالذكرأن هذا اللون من المدائح النبوية الذى كثرت فيه المعارضات، فى العصر المملوكى، قد اتخذ قالباً فنياً جامداً، حيث اقتصر على أوزان بحر «البسيط» مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن، مكررة - وعلى روىّ الميم، إلى جانب استعراض الشاعر لفنون البديع فى تضاعيف

الألفاظ، فيما يعرف بـ «البديعيات». وأن شعراء العصر لم يقفوا بالمعارضات عند حد هذه المدائح، إذ كثرت فى أدبهم كثرة مفرطة، فطويلة ابن نباتة التائية فى مدح كمال الدين بن الزملكانى، القاضى العالم، والتى تُعَدُّ من عيون شعر العصر، بانسجام ألفاظها ورقة عباراتها وجمال أسلوبها، فضلاً عما فى تضاعيفها من حسن التصوير، وروعة النكت الأدبية، وجدة الدقات البديعية، مع تنوع فنونها، والتى استهلها بالغزل قائلاً:

قضى وما قُضِيَتْ منكم لبـانات ∴ متيّـم عبثت فيه الـصبابـات

ما فاض من جفنه يوم الرحيل دم ∴ إلا وفـى قلبـه منكم جراحات

أحبابَنا كُـلُّ عضو فى محبتـكم ∴ كليم وجـد فهل للواصل ميقات؟!!

عارضها كثير من شعراء العصر، بيْد أن معارضه الأديب الشاعر «برهان الدين القيراطى» (ت: ٧٨١هـ) تعد أفضل المعارضات، إذا أجاد فيها القيراطى إجادة ظاهرة، وقد استهلها بقوله:

ما لابتداء صباباتى نهايات ∴ يا غاية ما لعشقى فيه غايات

وبعض أهل الأدب فضلها على تائية ابن نباتة؛ فى حين يفضل ابن حجر العسقلانى (ت: ٨٥٢هـ) تائيته على تائيتى ابن نباتة والقيراطى معاً؛ والأحظى عندى بالقبول ما يراه «تاج الدين السبكى» فى كتابه «طبقات الشافعية» إذ يقول عندما ذكر هذه التائية، وهو يترجم «الابن الزملكانى» فى أسلوب مسجوع: «ولما قال ابن نباتة فى ابن الزملكانى هذه القصيدة البديعية، حاول أدباء عصره معارضته، فما أحسنوا صنيعه، بل كل قصر ولم يلحق، وتأخر وما جاء بالحق». وهكذا

أفصح شعر العصر المملوكى عن ألوان من المديح، والمعارضات والبديعيات كان لشعرائه باع لا تجحد فى ابتكارها، وإن استولى الضعف على بعضها، بسبب الانصراف إلى رصف الألفاظ، وحشوها بشتى الأفنان البديعية.

كذلك عرف شعر العصر المملوكى طريقه إلى:

الزهد والحكمة:

فقال فيهما الشعراء زاهدين، أو متزهدين، بيد أن ما عاناه بعضهم أصقلهم، فجرت على ألسنتهم الحكمة، ومن أمثلة ذلك قول ابن نباتة:

أستغفر الله لا مالى ولا ولدى

آسَى عليه إذا ضم الثرى جسدى

عِفتُ الإقامة فى الدنيا لو انشرحت

حالى، فكيف وما حظى سوى النكد!!

وقد صدئتُ ولى تحت التراب جِلا

إن التراب لجِلَاَّء لكل صدى

لا عار فى أدبى إن لم ينل رُتبا

وإنما العار فى دهرى وفى بلدى

هذا كلامى وذا حظى!! فيا عجبا

منى لثروة لفظ وافتقار يد

أما الهموم فبحر خضتُ زاخرَه

أما ترى فوق رأسى فائض الزبد؟!!

يا جامع المال إن العمر منصرم

فابخل بمالك مهما شئت أو فجُد!!

ويا عزيزا يَخيطُ العجبُ ناظرَه

اذكر هوانك تحت الترب واتئد

كم واثق بالليالى مد راحته

إلى المرام فناداه الحِمام: قَدِ[1]

ومما يمثل الحكمة الرائقة هذا النصح والتوجيه اللذان فاضت بهما لامية (ابن الوردى ٧٤٩هـ).

والتى منها[2]:

اعتزل ذكر الأغانى والغزل	وقل الفصْل وجانب من هزل
ودع الذكرى لأيام الصِّبا	فلأيام الصِّبا نجم أفَلْ
واتق الله، فتقوى الله ما	جاورت قلب امرئ إلا وصل
ليس من يقطع طُرُقا بطلا	إنما من يتقى الله البطل
واهجر الخمرة إن كنت فتى	كيف يسعى فى جنون من عقَلْ؟!
. اطلب العلم ولا تكسل، فما	أبعدَ الخيرَ على أهل الكسل!!
لا تقل: قد ذهبت أربابُهُ	كل من سار على الدرب وصل
لا تقل: أصلى وفصلى أبدا	إنما أصل الفتى ما قد حصل

(١) الراحة: بطن الكف. الحمام: الموت. قَد: معناها حسب.

(٢) ديوان ابن الوردى، تحقيق الدكتور أحمد فوزى الهيب ص ٤٣٥ ومابعدها.

قيمة الإنسان ما يحسنه   أكثر الإنسان منه أم أقل

هذا الجزء من اللامية ـ كما ترى ـ يفيض بالنصح، ويعج بالإرشاد، فى أسلوب سهل ممتنع ممتع، ومعان سامية سمحة، استقاها الشاعر من نبع الدين الإسلامى الوضاء.

ومن الفنون التى كثرت فى شعر عصر المماليك أيضاً:

الوصف:

لعل شعر الوصف فى هذا العصر كان أكثر غزارةً، وأشدَّ فيضاً منه فى العصور السابقة، إذ أن الشعراء لم يتركوا شيئاً إلا وصفوه، وافتنوا فى وصفه، فلم يهملوا شاردة أو واردة وإن كانت تافهة. لقد خلعوا على الطبيعة ومظاهرها الحياة، فى فن تشخيصى رائع، فاستحالت فى أشعارهم تغنى وترقص، وتختال وتزهو، وتسرق الخطو وتغار، يقول الحلِّي:

خلع الربيع على غصون البان ∴ حُلَلاً فواضِلُها على الكثبان[1]

ونمت فروع الدَّوْح حتى صافحت

كَفَلَ الكثيب ذوائب الأغصان[2]

---

(١) البان: شجر طويل الساق. خلع عليها: يريد كساها الأوراق. حللها: أوراقها. فواضلها: أطرافها. الكثبان: جمع كثيب وهو التل.

(٢) الدوح: الشجر العظيم جمع دوحة.. والمراد بـ صافحت، لامست. الكفل: العجز. وكفل الكثيب: أجزاؤه البارزة فى وسطه أو أسفله ككفل الدابة. ذوائب: جمع ذؤابة، وهى خصلة الشعر، شبه بها الأغصان فى التدلى وتفرق الأجزاء والتشعب.

وتتوّجتْ هام الغصون وضـرّجـتْ

خـدَّ الرياض شـقائـقُ النعمــان[1]

وتنوعت بُسطُ الــريـاض فــزهرها

متــبايــن الأشــــكال والألــوان

والظل يسـرِق فــى الخمـائل خَطْــوَهُ

والغصـــن يخطر خِطرة النشــوان[2]

وكأنما الأغصـــان ســوقُ رواقــص

قــد قُيـدت بسلاسـل الريحـان[3]

والشمس تنظر مـــن خـلال فـروعها

نحــو الحـدائــق نظـرة الغيْـران

والأرض تُعجب كيف تضحك والحيا

يبـــكى بدمـــع دائـم الهَمَــلان

حتى إذا افتــرّت مهـاســمُ زهرها

وبكى السحاب بــمدمع هتّــان[4]

---

(١) ضرجت: صبغت. شقائق النعمان: نبات ذو زهر أحمر أو أصفر، تبدو زهراته شقين.

(٢) الخمائل: جمع خميلة وهى الشجر الملتف. يخطر: يميل بهوادة ولين. وخطرة بكسر الخاء اسم هيئة. والنشوان: السكران. وقوله: والظل يسرق خطوه: لأنه يسير وئيداً، وينتقل انتقالاً لا يلحظه من يصاحبه.

(٣) سوق: جمع ساق.

(٤) هتان: غزير السيل.

ظلت حـدائقه تعـاتب جُونَـهُ

فأجاب معتذرا بـغير لســان(١)

طفح السرور علىّ حتــى إنـه

من عُظم ما قدَ سـَرنى أبكانى

ومما قاله الشاب، وفيه تورية لطيفة:

قامت حروب الزّهر مـا ∴ بين الـرياض السنـدسيّه

وأتت جيوشُ الآس تغـزو ∴ روضــة الـورد الجنـيّه

لكنـها كـسرت، لأنّ ∴ الـورد شوكتـه قـويـّه

وكان الشعراء يهتمون بوصف التوافه أو الأدوات، كما فى قول «النواجى» (ت: ٨٤٩هـ) فى وصف مِخدّة:

هى نفع ولذة للنفـوس ∴ وحيـاة وراحـة للجـليـس

كم نديم أرَحْته باتكـاء ∴ وتواضعْت عند رفع الـرءوس

وتجدر لإشارة إلى أن فن الوصف فى العصر المملوكى لم يخل من الابتكار والاختـراع، من ذلك مـثـلاً قول فـخـر الدين بن مكانس، الذى اعتنق الإسلام في نحـو العشرين من عمره، والمتوفى سنة ٧٩٤هـ يصف شجرة إلى جانب نهر النيل مائلة نحو شاطئه:

مالت على النهر إذ جاش الخرير بها ∴ كأنـها أذُن مالـت لإصـغاء(٢)

وقول يوسف بن لؤلؤ فى روضة:

---

(١) حدّق الزهر: ظهر حدقه أى تفتحت عيونه. والجون: السحب القائمة الممطرة.
(٢) الخرير: صوت الماء الجارى.

نسيمها يـعثر فـى ذيـلـه ∴ وزهــرها يـضحك فــى كمّه

ومن الفنون التى اتسع النظم فيها فن:

الألغار والأحاجى:

وهو من وجوه ألاعيبهم بالشعر، فهـو من أبواب الصناعـة، مع التعمية فى سياق المعنى، فالشعراء كانوا يهدفون منه إلى اختبار ذكاء بعضهم بعضاً، تفكها وتنادراً، كقول ابن عبدالظاهر ملغزاً فى كوز ـ إناء صغير له أذن ـ أى عروة ـ يغرف به الماء:

وذى أذن بلا سـمـــع ∴ لـه قلـــب بـلا قلـب

إذا استولى على كـُـبَّ ∴ فقل ما شئت فى الصَّب(١)

وقول ابن نباتة ملغزاً فى قلم:

مولاىَ ما اسمٌ لِنَاحـلٍ دَنِفٍ ∴ ليـــس بــه علــة ولا سَقَـمُ

لسانُ قوم فإن حـذفْـتَ وإن ∴ صحَّفْتَ بعض الحروف فهو فَمُ؟!

كذلك كثر فى عصر المماليك «شعر الفكاهة»:

وهو لون اجتماعى، يثير فى الناس غريزة الضحك، وقد شاع فى العصر، وسرت روحه الفكِهة البارعة فى تضاعيف أشعارهم الوصفية والغزلية والهجائية وغيرها؛ ويلوح للدارس الممعن أن هذا اللون من الفكاهة كان تنفيساً عن أحاسيس مكبوتة فى نفوس شعرائه، ونقداً اجتماعياً هادفاً لاذعاً: فالشعر يتعزى ويسرى عن نفسه، ويعبر عن شقائه،

---

(٣) الحب: المحبةَ والحُب الجرة العظيمة. والصب: المحب، والصَّبُّ مصدر بمعنى دفق الماء. وعروة الكوز فى العامية «أذن» وهى لا تسمع.

ويتنفس عن طريق الفكاهة والنكتة، ونماذج هذا اللون الشعرى تكشف عن هذه الملامح؛ منها قول كمال الدين بن المبارك «ابن الأعمى» (ت:٦٩٢هـ) فى داره:

دارٌ سكنت بهـا أقـلُّ صـفـاتهـا ∴ أن تكثـر الحشرات فى جنباتها

أين الصـوارم والقنـا من فـتكهـا ∴ فـينا وأين الأسْد من وثبـاتهـا؟!

وبهـا من الجُرْذان مـا قـد قصرَت ∴ عنه العتاق الجُردُ فى حملاتها

وبهـا عـقـارب كـالأقـارب رُتّـعٌ ∴ فينا، حمانا الله لدغ حُماتها[1]

كيف السبيل إلى النجاة؟ ولا نجاة ∴ ولا حـيـاة لمن رأى حـيـاتهـا

السُّمُّ فى نفثَاتها، والمكر فى ∴ فلَتَاتهـا، والمـوت فى لفَتَاتها

وقول ابن دانيال يصف برذونه ـ البغل الذى يركبه ـ :

قـد كمَّل الله برذونى لمنقـصـة ∴ وشانه ـ بعدما أعماه ـ بالعرَج

أسيـرُ مـثل أسـيـر، وهو يعـرج بى ∴ كـأنه مـاشـيـا ينْحطُّ من درَج

فإنى رمانى على ما فيه من عرج ∴ فما عليه إذا ما مت من حرج[2]

وقول نصير الدين الحمّامىّ المصرى (المتوفى سنة ٧١٢هـ) فى داره:

---

(١) جمع حمَة، الإبراة التى تضرب العقرب بها.

(٢) اقتبس الشاعر المعنى من قوله تعالى فى سورتى النور والفتح: ﴿ليس على الأعمى حرج ولاعلى الأعرج حرج ولاعلى المريض حرج﴾.

ودار خـراب بهـا قـد نزلت ∴ ولكنْ نزلت إلى السـابعـهْ

طريقٌ من الطرّق مـسلوكـة ∴ محَجَّتـهـا للورى شـاسـعـهْ

فلا فـرق مـا بين أنى أكـون ∴ بهـا أو أكـون على قـارعـهْ

تسـاورها هفـوات النسـيم ∴ فـتـصـغى بلا أذن سـامعـه

وأخشى بهـا أن أقيم الصلاة ∴ فـتـسـجد حيطانهـا الراكـعـة

إذا مـا قـرأت إذا زلزلت ∴ خـشـيت بأن تقـرأ الواقـعـه

وقوله أبى الحسن الجزار فى فقره:

لزمت بيـتى، وقـد زَرّرْتُ أبوابى ∴ علىّ حـتى غـسلت اليـوم أثوابى

أنان فى الزّبل كى يدفا به جسدى ∴ ما بين جمر به، ما بين أصحابى

وما تراقصت الأعضاء فى جسدى ∴ إلا وقـد صـفقَتْ بالبرّد أنيـابى

وقوله فى حماره، الذى اتخذه هُزُواً، ومادة دعابة، حتى إن حمار الجزار كان أشهر من بغلة البهاء زهير:

هذا حـمـارٌ فى الحـمـيـر حـمـار ∴ فى كل خطو كـبْوة وعـثـارُ

قنطار تبْن فى حـشـاه شـعـيـرة ∴ وشـعـيـرةٌ فى ظهـره قنطارُ

وقوله فى وقد نفق:

مـات حـمـار الأديب قلت لهم ∴ مـضى وقـد فـات منه مـا فـاتا

من مـات فى عـزّه اسـتـراح ومن ∴ خلف مـثل الأديب مـا مـاتا !!

لك الله يا أبا الحسين فقد «نفق الحمار وبارت الأشعار»!!

حرىّ بنا بعد هذا أن نلفت النظر إلى أن جُلّ شعر الفكاهة قد انصب على وصف حالة الفقر والمسبغة التى يتردى ويتقلب فيها شعراء العصر المملوكى، وأن معظم هؤلاء الشعراء لم يبرحوا دائرة السخرية من دورهم الخربة، ودوابهم الهزيلة، ومن ضيق ذات اليد(١).

ومن شعراء العصر المصحكين من سلك سبيل نظم «البدهيات» كأنما يعرف الماء بعد الجهد بالماء، وقد امتاز بهذا اللون الشاعر «أبو الحسين بن سودون القاهرى ـ ٨٦٨هـ» صاحب «نزهة النفوس ومضحك العبوس» و«قرة الناظر ونزهة الخاطر». من ذلك قوله:

البحر بحر والنخيل نخيل ∴ والفيل فيل والزراف طويل
والأرض أرض والسماء خلافها ∴ والطير فيما بينهن يجول
وإذا تعاصفت الرياح بروضة ∴ فالأرض تثبت والغصون تميل

وقوله أيضاً (يحصل الحاصل):

عجب عجبٌ عجبٌ عجبٌ ∴ بقرٌ تمشى ولها ذنَب
لا تغضب إن شُتمتَ ∴ والناس إذا شُتموا غضبوا
الناقة لا منقار لها ∴ والوزّة ليس لها قتَب

كذلك راج لدى شعراء العصر المملوكى «النظم التعليمى» إذ شرعوا ينظمون أنواع العلوم شعراء، كالنحو والصرف والبلاغة والفقه، رغبة منهم فى تسهيل حفظها، ووقفنا من هذا اللون على كثير من المنظومات، كالألفية، والكافية الشافية، ولامية الأفعال لابن مالك وغيرها.

---

(١) راجع شعر الخصاصة فى العصر المملوكى للدكتور شفيق أبو سعدة.

والمقطعات الوافرة التى كانت تنظم وتدور فى الغالب النكت البلاغية، والتورية على الأخص، كما فى قول يوسف بن لؤلؤ الذهبى الدمشقى. (٦٨٠هـ) يوازن بين حبه وحزنه وبكائه وبين ما ينسب إلى الحمامة من مثل ذلك:

أنىّ تبارينى جوًى وصبابةً وأنا الذى ∴ وكآبةً وأسىً وفيض مآق؟!!وهى
أملى الجوى من خاطرى ∴ التى تملى من الأوراق(١)

وقوله:

يا عاذلى فيه، قل لى
عن حبه كيف أسلو؟
يمرّ بى كل حين
وكلما مرّ يحلو!!(٢)

إلى غير هذا من الفنون والأغراض التى عرفها شعر العصر المملوكى؛ ومن ثم يتضح لنا أن فنون الشعر كثرت فى هذا العصر، وأن الشعراء كانوا بين متكئ على الشعراء السابقين، فجاء شعره تقليداً لهم، وجرياً فى فلكهم؛ وبين سائر مع سنة الحياة من التطور، فجاء شعره جديداً مبتكراً، فلم يكن التقليد إذن إلا فى الأغراض التقليدية، وربما فى شعر المدرسة المحافظة.

---

(١) التورية فى «الأوراق» تملى من الأوراق - جمع ورقة مكتوبة - فى مقابل «من خاطرى» وتملى من الأوراق وهى موجودة بين أوراق الشجر.

(٢) التورية فى كلمة «مرّ» فمر من المرور سار على مقربة منى، ومر من المرارة ضد الحلاوة راجع فى ابن لؤلؤ وتورياته شذرات الذهب ٥/٣٦٩، الأعلام ٩/٣٢٥.

وقفة قصيرة مع فنون النظم عند المولدين

لكن المحافظة على عمود الشعر العربى لم يكن غاية كل شاعر، ومن ثم وجدنا ثورة عارمة على المدرسة التقليدية، وتحرراً من إسار القديم؛ راحت هذه الثورة التحريرية تحض على التفلت من الصيغة المعهودة فى الشعر العربى، فتلجأ إلى الضرائر الشعرية، وتسبيح الوقوع فى الأخطاء اللغوية والصرفية، وتستخدم الألفاظ حيناً، وتنطلق على صهوة جواد سباق نحو اللهجة العامية الملحونة حيناً، وتشذ عن المألوف من الوزن والقافية حيناً آخر، وبذلك ظهر ما يعرف بالأدب الشعبى «الفولكلورى».

وقد حمل جماعة من شعراء العصر كِبَرَ هذه الصور الجديدة، الخارجة عن دائرة الذوق الرفيع، مما صرف الشعر عن وجهه من الإمتاع، وأحاله عن حظه من الفائدة.. والمؤسف أن يتأثر بهذا التيار كوكبة من كبار أدباء العصر، أمثال: البوصيرى والجزار والوراق والكحال.

من الشعر الذى ورد يحمل وزر هذا السَّخْف والاستخفاف قول شمس الدين الواعظ الواسطى:

فلله مــا أحلى قــديم حــديثكم	وأطيب عندى من عشـاى وغـدوتى
عـسى تسـمح الأيام تجـمع شـملنا	وتـرجـع أوطـارى ولـذتـى الـتـى

فالخيال فيه سقيم، والمعنى ساقط مبتذل، والعامية تبتلعه، والنحو يئن لحذف الصلة. ومنه قول ابن الوردى فى تاجر، وفيه ما فيه من العامية:

وتاجـوشـاهدتعـشـاقــه	والحـرب فـيـمـا بينهم سـائر
قــال :عــلاماقـتـتلواهكذا	قلت: على عينك يا تاجـر!!

وقد صارت فنون النظم عند أولئكم المولدين سبعة، بين فصيح وشعبى، وتداولها أهل المغرب ومصر والشام، وهى: الشعر القريض، والموشح، والدوبيت، والزجل والمواليا، والكان وكان، والحماق. أما أهل العراق وديار بكر ومن يليهم فيثبتون من هذه الفنون خمسة، ويحلون محل الزجل والحماق فنى: الحجازى والقوما.

وهذه الفنون شعبية، ولا فصيح خالصاً بينها إلا الشعر القريض.

أما الموشح: ففن الوسطية بين الفصحى والعامية، إلاأنه انفلت من قيد الوزن الواحد والقافية الواحدة فى القصيدة، ومنه موشحة صدر الدين ابن المرحِّل (ت: ٧١٦هـ):

ما أخجل قدُّهُ غصونَ البانْ	بيـــن الـــورقِ
إلا سلب المها مع الغزلان	ســود الحــدق

ويقول فيها:

كالورد حـواه ناعم الريّحان	بـالطَّــلّ سُـقِـى
والقدُّ يميل ميلة الأغصانْ	للمُعتَــــــــنق

أحـيـاوأمـوت فى هواهُكـمـداً

من مـات جـوى فى هواه سَعِدا

يا عـاذلى لا أتركُ وَجـدى أبدا

لا تعذلْني فعلما تلّحاني ‏ ‏ ‏ زادت حـــــرقى
يسُّتاهلُ من يهمُّ بالهجران ‏ ‏ ‏ ضـــرب العـــنق

وأمـا الـزجَلُ: فهو الصورة العامية للموشح ، يتخذ شكله ومادته وبناءه من الأقفال والأغصان، وإن استخدم عروض الشعر الفصيح، ومنه قول ابن شاكر:

جفونـــى مـــا تـــنام إلا ‏ ‏ ‏ لعــــــلى أن أراك
فورنـى قـد بـرنى الشوق ‏ ‏ ‏ يــــا غصــــن الأرك
وطـــرفى مـــا أر مـــثلك ‏ ‏ ‏ وقلـــبى قـــد حـــواك

فهـو لم يـزل مسـكن ... فسـبحان الـذى سـكن ... وحسـنك كـم بـه أفـتن وما قصدى سواك

حبيبى أه ما أحلى ‏ ‏ ‏ هوانى فى هواك

وأمـا المواليـا: ففـن شـعبى يجـرى على وزن واحد غالباً ، لكن يلزم أشكالاً خاصة فى القافية، ومنه قول عز الدين ين طرخان :

البدر والسعد دا شبهك ، ودا نجمك
والقـد والـلحظ دا رمحـك ودا سـهمك
والـبغض والحـب دا قسمى، ودا قسمك
والمسـك والحُسْن دا خـالك ودا عمك

وأما الدوبيت: فالكلمة فى الأصل فارسية، أطلقت على شكل من أشكال الشعر الفارسى، وكثر فن الدوبيت عند شاعرهم «عمر بن الخيام» وتفعيلاته: فعلن متفاعلن فعولن فاعلن، ويتكون من أربع شطرات كالموال، لكنه لا يجرى على قافية واحدة مثله، بل المشهور فيه ثلاث متشابهات وواحدة مطلقة، ومنه ما رواه ابن إياس فى تاريخه لبعضهم:

طرقت باب الخبا قالت: من الطارق؟

فقلتُ: مفتـون لا ناهب ولا سـارق

تبسّمت لاح لى من ثغرها بـارق

رجعت حيران فى بحر أدمعى غارق

ومنه ما قاله على بن محمد القوصى (ت: ٧٠١هـ):

يا عين بحـق من تحبى نامـى ∴ نامى فهواه فى فؤادى نامى

والله ما قلت ارقدى عن مـلاله ∴ إلا لعسى تريه فى الأحلام

وأما الكان وكان: فسُمّى بهذه التسمية لأنهم كانوا ينظمون فيه الحكايات والخرافات، حتى جاء ابن الجوزى وشمس الدين الكوفى فنظما فيه المواعظ والحكم؛ ومنه ما قاله ابن الوردى فى الطاعون الذى ضرب الشام سنة ٧٤٩هـ:

أعـوذ بالله ربـى ∴ من شر طـاعون النسب

بـارُوده المستعلى ∴ قـد طار فى الأقطـار

ومنه قول بعضهم:

النار بين ضـلوعى ∴ ونا غريق فى دموعى

كنى فتيـلة قنـــديل ∴ أموت غـريق وحـريق

وأما الحجـازى والقوما: ففنان اخترعـهما البغداديون ليتغنى بهما فى شهر رمضان[١] وقد اشتهر فى ميدان الأدب الشعبى وفنونه: شرف الدين ابن أسد المصرى، وإبراهيم المعمار، وخلف الغبارى، وأحمد الدرويش، وأحمد بن عثمان الأمشاطى، وغيرهم.

والحق أن الأدب العربى لم ينل من هذه التظاهرة الغوغائية إلا هذا المسخ، الذى أفرزته جناية الضحالة والضآلة، والرغبة فى الظهور التى تقصم الظهور؛ وكم لهذا وتلك من جنايات!!

---

(١) انظر فى الموضوع الجزء الثالث من كتاب «تاريخ الأدب العربى» للرافعى، وكتاب: «الأدب فى العصر المملوكى» للدكتور محمد زغلول سلام.

الحلقة الثالثة عشر

خصائص شعر العصر

بادىء ذى بدء أذكر بأن شعر العصر كان صدى لحالة الشعراء، وللواقع الاجتماعى والسياسى المسيطر، وأن هذا الواقع الأليم بات عاجزاً من أن ينفح الأدب بالجديد الطريف، والشعر على الجملة غدا صناعة لفظية، وتلاعبا يفتن فى ضروبه الشعراء، بعد أن كان من قبل قريحة وطبعا. ومن هنا غلبت عليه المعانى القديمة المطروقة والخيال السقيم الكسيح.

ولشعر العصر المملوكى خصائصه اللفظيه والأسلوبية.. أبرزها:

* السهولة فى اللفظ والسماحة فى التركيب: ولعل مرد هذه الخاصية إلى تأثر الشعراء بالعامة وأوساط الشعب، فآثروا الألفاظ اللينة والأساليب السهلة، التى لا تتجافى مع مسامع العامة، ولا تحار أفهامهم حولها، كما فى قول أحمد الطرابلسى (٧١٧هـ) فى أودائه ـ المحبين ـ:

ما مسنى الضيم إلا من أحبائى   فليتنى كنت قد صاحبت أعدائى!!

ظننتهم لى دواء الهم فانقلبوا   داء يزيد بهم همى وأدوائى

من كان يشكو من الأعداء جفوتهم   فإننى أنا شاكٍ من أودائى!!

وقول سراج الدين الوراق حين اشعل رأسه شيباً:

طوتّ الزيارة إذ رأت   عصر المشيب طوى الزيارة

وبقيت أهرب، وهى تسأل جارة من بعد جاره

وتقول : يا ستّ استرحنا لا سراج ولا مناره[١]

لقد جنح الشعر إلى اللين والسهولة حتى قربت ألفاظ الشعر وتراكيبه من العوام وتراكيبهم، وها هو صفى الدين الحلى يقول:

إنما الحيزبون والدردبيس والطّخا والنُّقاخ والعلطبيس[٢]

لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس

وقبيح أن يذكر النافر الوّحشىّ منها ويترك المأنوس

أين قولى: هذا كثيب قديم ومقالى: عقنقل قُدموس

لم نجد شاديا يغنى قِفانبك على العود إذ تدار الكؤوس

لا ولا من شدا أقيموا بنى أمى إذا ما أدبرت الخندريس

أتوانى إن قلت للحب: يا علق درى أنه العزيز النّفيس

أو إذا قلت: للقيام جلوس علم الناس ما يكون الجلوس

خَلّ للأصمعى جوّب الفيافى فى نشاف تخف فيه الرؤوس

إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس

لقد غدا أسلوب الشعر سهلاً ليناً، باعداً بين أصالته العربية وجزالته القوية، وكأنما ضعفت قراءات شعراء العصر، وقل محفوظهم من جزالة

---

(١) هنا تورية: فالسراج: القنديل، أى فأصبحنا لا نتعب فى العناية بالسراج ولا بالعمود الذى يرفع عليه، والسراج: (سراج الدين الوراق) فقد غاب عنا.

(٢) الحيزيون والدردبيس: العجوز الداهية. والطخا: السحاب المرتفع. النقاخ: الماء البارد العذب. والعلطبيس: الأملس البراق. العقنقل القدموس: الكثيب القديم.

المتنبى وحكمته، وفحولة أبى تمام وعروبته؛ تأمل ابن الوردى يصف ناعورة فيقول:

ناعورة مذعورهْ ولهانة وحائره
الماء فوق كتفها وهى عليه دائره

تجد أسلوباً ليناً ضعيفاً لا قوة فيه، ولا جزالة تمشى فى نواحيه.

وكان للبهاء زهير (ت: ٦٥٦هـ) أثر فى تسهيل الشعر وتطويع أسلوبه للغة المخاطبة، ولكنه لقوة ملكته، وسلامة طبعه، وسعة ثقافته، لم ينحدر إلى هذا المستوى من الضعيف واللين، وراح الشعراء بعده يقلدونه، وهم لا يملكون مقوماته، فجمحوا إلى اللين والسهولة، حتى وصلوا بأساليبهم إلى مستوى العامية وأساليب الجماهير.

بيْدَ أن من شعراء العصر من كان يترفع عن الانخراط فى هذا الدرك المسف، فها هو ذا ابن نباتة يعتد بقوة شعره وفحولة لفظه، وبما ورثه عن آبائه وأجداده، يقول:

ورثت اللفظ عن سلفى فأكرم بآل نباتة الغُرِّ السَّرَاةِ
فلا عجب للفظى حين يحلو فهذا اللفظ من ذاك النبات

ولا غضاضة!! إذا ما اعتد المطبوع المبدع «ابن نباتة» فقال:

من مبلغ العرب عن شعرى ودولته أن ابن عباد باقٍ وابن زيدونا!!

* تكلف أنواع البديع: حيث هام شعراء العصر بالزخرفة اللفظية، فطغى ذلك على الأساليب الأدبية، ويرجع ذلك إلى: أن الشعراء كانوا يرون فى هذا المسلك الفنى (البَدِيعى) إرضاءً لمثقفى زمانهم، وصيانة

للأدب ممن تطفلوا على مأدبته، ومظهراً من مظاهر التفوق الأدبى، كما كانوا يجدون فيه متنفساً عما يعانون، دون ما لوم أو تبعة، ولهذا أكثروا من ألوان بديعية معينة، كالتورية والإيهام والاستخدام، لمعانيها المتشابكة، تقوم بهذه الغاية الرمزية، وتضمن لهم حسن التخلص؛ غير أن متذوقاً لاينكر أن الإسراف فى تكلف البديع مرذول، يفسد رهافة الحس وحرارة العاطفة، ويطبعهما بالجمود والتحجر، وأن متذوقاً لا ينكر أن البديع إن جاء عفو الخاطر، ولم يكد الذهن لاجتلابه كان رائقاً شائقاً، يوحى بالمهارة الأدبية والمقدرة الفنية، وإن كان من أبرز المحسنات البديعية التى شاعت فى شعر العصر: التورية.

شغف بها الشعراء، وتنافسوا فى الإكثار منها، وباهوا بها سابقيهم، مدعين لأنفسهم: شرف ابتداعها، ومنها ما جاء فى قول سراج الدين (الوراق) يورى بلقبه[1]:

واخجلتى وصحائفى قد سودت ... وصحائف الأبرار فى إشراق

وفضيحتى لمعنف لى قائل ... أكذا تكون صحاف الوراق؟!!

وقوله فيمن اسمه عرفات:

أطنبوا فى عرفات، وغدوا ... يتعاطون له حسن الصفات

ثم قالوا لى: هل وافقتنا ... قلت: عندى وقفة فى عرفات!!

---

(١) الوراق: لقب الشاعر. والوراق: الذى ينسخ الكتب؛ يشير إلى أن كل إنسان يتناول كتابه يوم القيامة ليقرأ فيه ما دون عليه من أعماله الصالحة والطالحة.

وقول ابن منظور المصرى (٧١١هـ):

بالله إن جُزت بـوادى الأراك   وقبّلَتْ أغصانهُ الخضرُ فاك

ابعث إلى المملوك من بعضه   فإننى، والله ما لى سـواك

وقول نصر الدين الحمامى (٧١٢هـ):

جودوا لنسجَعَ بالمديح   على علـاكم سـرمـداً

فالطير أحسنُ ما يغـرّد   عنـدما يقـع الـندى

وشغف القوم بالتورية حملهم على التماسها فى المصطلحات العلمية، على غرار ما رأينا عند السراج الوراق فى قوله موريا بمصطلحات عروضية:

قالت: جمعت لفاقة كسـلا   فانهض وقم وإدْأبْ لِهـمّ العائله

فأجبت: هل تدرين لى سببا   قالت: ولا وتداً، وهـذى الفاصله

وقد كانوا يعدون أنفسهم رواد فن التورية وسدنته.

الجناس:

يقول محمد بن دانيال فى شظف عيشه وقلة رزقه مع علمه وعقله:

قد عقلنا والعقـل أىُ وثـاق   وصبَرنْا والصبر مُـرُ المذاق

كل من كان فاضلاً كان مثلى   فاضلا عند قسمة الأرزاق!!

فالجناس واضح بين كلمتى: (فاضلاً) إذ تعنى أولاهما: صاحب فضل ومكانة مرموقة، وتعنى ثانيتهما: باقيا، زائداً، فقد أخذ الجميع

نصيبهم من الرزق، وبقى هو بلا نصيب منه. ومثله فى قول نصير الدين الحمامى:

أبيات شعرك كالقصو ... ر ولا قصور بها يعـــوق

ومن العجائب، لفظها ... حُـرّ، ومعـناها رقيـــق

ففى لفظتى (قصور) جناس، حيث إن القصور الأولى جمع قصر (البيت الفخم) والثانية (مصدر) بمعنى: التقصير، أى عجز الإنسان عن الإتقان.

ومن نماذجها الرائعة أيضاً ما جاء فى قول صفى الدين الحلى، فى الغيد الحسان اللاتى أسرن لبه، وسلبن فؤاده بحسنهن، فوجوههن ـ عند كشفن عنها ـ الصبح، سرى نوره فى الليل المظلم فأصبح منيراً، أبيض كأنه شائب(١):

أسْبَلْن من فـوق النُّهـود ذوائبا ... فتركن حبّات القلـوب ذوائبا

وجلون من صبح الوجوه أشعه ... غادرن فَوْدَ الليل منها شائبا

والجناس فى كلمتى (ذوائبا) **فأولاهما: جمع ذؤابة، وهى خصلة** الشعر المرسلة على صدر الكاعب الحسناء الناهد. وثانيتهما: جمع ذائبة.

الاقتباس:

برع شعراء هذا العصر فى الاقتباس من آى الذكر الحكيم والحديث الشريف، كما برع فى ذلك الكتّاب، ومنه ما اقتبسه صفى الدين الحلى

---

(١) معارضاً بها المتنبى في:

بأبى الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلاببا

من الآيات البينات فى سورة الفرقان ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ ﴿ إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ .

فقال يتشوق ويفتخر بعشيرته:

بلغى الأحباب يا ريـــ ـحَ الصبًا عنــى السلاما
وإذا خــاطبك الجـــا هل بى، قولــى سلاما
أنا منَ لم يذمم النــا سُ لــه يومــا ذمامـا
من أناس صــروا العر ضَ على الــذم حراما
وإذا مـــروا بلَغْــوا فى الـورى مـرّوا كراما
فلكم ذقت غذابـــا للهوى كـــان غراما
إن نار الشـــوق ساءت مستقـــرا ومُقــاما

ويقتبس ابن نباتة من قول الله عز وجل فى سورة النجم ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ .

فيقول:

وأغْيدَ جارت فى القلوب لـحاظـه
وأسْهَرَت الأجفـانَ أجفانهُ الوسنَـىَ
أجِل نظرا فـى حاجبيـــه وطرفــه
ترى السحر منه قاب قوسين أو أدنى

ويقتبس صلاح الدين الصفدى من قول الله سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء: ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ فيقول:

يا عاشقين حـــاذروا مُبْتَسَماً عـــن ثغره
فطـــرفه الساحر إن شككتم فى أمــــره
«يـــريد أن يخرجكـــم من أرضكم بسحـــره»

التضمين:

هام شعراء العصر بشعر الأوائل، فأكثروا من السطور والإغارة عليه، يضمنونه فى شعرهم، ويدخلونه فيه، يفسر هذه الظاهرة قول ابن الوردى:

وأسرِقُ ما استطعتُ من المعانى فإن فُقت القديم حمدت سيرى
وإن ساوَيـــتُ مَـــنْ فحســـبى مســـاواة القديـــم وذا لخيرى
وإن كان القديـــم أتـــمَّ معنـــى فـذلك مـبلغى ومـــطار طيرى
فإنّ الدرهم المضروب باسمـــى أحـــبُّ إلىَّ من ديـــنار غيرى

وقول مجير الدين الإسعردى (ت: ٦٨٤هـ):

أطالـــع كل ديــــــوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمـــّن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

ومن ذلك قوله فى وصف مليح ينظر فى مرآة:

طوبى لمرآة الحبيب فإنـــــها
حملت براحة غصن بان أينعا
(واستقبلت قمر السماء بوجهها
فأرتنى القمرين فى وقت معا)

فالبيت الثانى جميعه للمتنى، ومن التضمين ما جاء فى قوله صفى الدين الحلى:

ليس فى الهوى عجب   إن أصابنى النصب

(حامـل الهوى تَعـبِ   يستفـزّه الطـرب)

فالبيت الثانى برمته لأبى نواس، غير أن الحلى قال: «يستفزه» بدل «يستخفه» عند أبى نواس. ومنه أيضاً قول سراج الدين الوراق وهو من محاسن التضمين.

توارى من الواشى بليل ذوائب   له من جبين واضح تحته فجر

فدّ عليه شـعره بـظـلاله   وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

فالشطر الأخير ـ كما ترى ـ مأخوذ من رائية أبى فراس الحمدانى. وقد بلغ اهتمام شعراء العصر بالتضمين إلى التماسه فى الموشحات. وها هو ذا صدر الدين بن الوكيل بن المرحل (ت: ٧١٦هـ) يضمن ـ فى موشحة له ـ كل قفل فيها شطرا من أبيات نونية ابن زيدون المعروفة، من ذلك قوله فى مطلع الموشحة:

غدا مناد محكمـا فيـنا   يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا

بحر الهـوى يغْـرقْ   من فيـه جهـلاً عـام

ونـارهُ تحـرق مـن   هـمّ أو قـد هـام

وربمـا يقلَـقَ   فـتى عليـه نـام

قد غيرّ الأجسام، وصيرّ الأيام   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

ونتيجة إلف الشعراء للتضمين، وجريهم فى ركباه، ذاع التشطير وشاع التخميس، ومن التشطير ما جاء فى المباراة التى دارت بين صلاح

الدين الصفدى وجمال الدين بن نباتة، فى قصيدتهما اللتين ضمنا أعجازهما بأواخر أبيات من معلقة أمرئ القيس.

كتب الصفدى لابن نباتة يقول:

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى كجلمود صخر حطه السيل من عل؟

وترمى على طول المدى متجنيا بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فرد عليه ابن نباتة قائلاً:

فَطَمْت ولائى ثم أقبلت عاتبا أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

بروحى ألفاظ تعرض عتبها تعرض أثناء الوشاح المفصل

فأحيين ودا كان كالرسم عافيا بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ومن التخميس ما فعله صفى الدين الحلى فى لامية السموءل، فقد استهل تخميسها بقوله:

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه وطول الفلا رحب عليه وعرضه

ولم يبل سربال الدجى منه ركضه إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل

ولعل أكثر الشعر العربى ظفرا بالتخميس «بردة البوصيرى».

حقاً لقد أكثر شعراء العصر من استخدام الحلية البديعية إكثاراً فاقوا به من عداهم، وأبدعوا فى هذا الميدان ما شاء لهم العطل أو حبّ التسلية، فانبثقت على أيديهم أثارة من فن، فقد أتوا فى باب البديع بالرائع المعجب الأخاذ، مما يشهد لهم بذوق سليم وطبع قويم؛ ولا غرو! فقد وصل القوم إلى قمة البديع علماً وعملاً.

ومن ذلك قول ابن داود القرشى المصرى (ت: ٨٢٨هـ) فى تخميس برده كعب بن زهير:

قل للعواذل مهما شئتموا قولـو   فليس لى بعد من أهواه معقول

ناديت يوم النوى والدمع مسبول   بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

متيّم إثرها لم يفْد مكبول

ومنه ما أقدم عليه الحلّي في ساحة نونيّة ابن زيدون، والتى استهل تخميسها قائلاً:

كان الزمان بلقياكم يُمنّينـا   وحادث الدهر بالتـفريق يثنينـا

فعندما صدقت فيكم أمانينا   أضحى التنائى بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

* ظهور ألفاظ عامية في شعر العصر، نتيجة انغماس الشعراء فى أوساط العامة، وشاعت هذه الظاهرة حين صار الشعر حمّى مباحاً يصل إليه كل من استطاع أن يقيم وزنه، وأضحى هذا المذهب العامّيّ مذهب شعراء الزّجل والمواليا وغيرهما من الفنون الشعبية، التى لقيت رواجاً بين جموع الشعب ومحافل العامة، بل لدى سلاطين المماليك، ولاسيما آل قلاوون وبرقوق؛ فأما «المواليا» فينسب هذا اللون إلى جارية للبرامكة كانت تبكيهم به عندما نكبهم الرشيد، وتقول مولولة بعد كل قطعة «وامواليا» وينهض فى أوزان البسيط، وله أربع قواف، ومن الفصيح والعامى، كما فى قول صفى الدين الحلي:

يا طاعن الخيل والأبطال قد غـــارت

والمغصب الربع والأمواه قد غـــارت

هواطل السحب من كفيك قد غــارت

والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

وله بالعامية فى التهنئة:

رأيت ذا العيد أول يوم فى عــــصرك

وريت ذا اليوم مع ذا الشهر فى نصرك

وريت ذا الشهر مع ذا العام طوع الشهر

والكل بالكـل أول مبــــتدأ عمـــرك

وأما «الزجل» فترجع نشأته إلى «أبى بكر بن قزمان» الأندلسى، ثم غطى على غيره من فنون الشعر فى المشرق ومصروالشام لسهولته وعدم تقييده بالإعراب، وتخصص فيه مجموعة من الشعراء فى عصر المماليك، فى مقدمتهم «خلف بن محمد الغبارى» ويأتى فى وزن جديد ولغةِ عامية ملحونة، ومنه قول خلف يفتخر:

خلف أستاذ فى الفن ما ينطاق ذاق عــــداه المـــنون

ما يعيبوا فى الفن غير ناقـص زايـــــــد جنــــون

شـــيخ مصـــدر لبيب قيِّـــم فى جمــــيع الفنـــون

باتضاع مع الصغار مرفـــوع فـــوق رؤوس الكبــــار

وأهل الفنون تجرى وما تلحق للغبــــــارى غبــــــار

* نظم الأبيات المؤلفة من الكلمات المصغّرة، كما فى قول الشاعر:

لحيظك والمقيلة مع نظيمى سحير فى سحير فى سحير

أو من الكلمات المهملة الحروف مثل:

كم ساهر حرم لمس الوساد وما أراه ســـؤله والمـــراد

أو من الحروف المعجمة مثل:

غنى يضن بنض نقى فيقضى بغبنى فى بغيتى

ولشعراء العصر وتاليه غرام بأشكال شعرية معقّدة، تتخذ طابع الكلفة كما رأيت، فيما قدمنا من صور، أو فيما يبدو من شعر «التشجير» المبنى فى تفرعه على أمثال الشجرة، والذى تشجر فيه الكلمات بعضها ببعض، أى تتداخل؛ والشعر المحبوك الطرفين الذى تكون أبياته مُبتدأةً مختتمةً بحرف واحد من حروف المعجم؛ والشعر الهندسىّ، القائم فى أشكال هندسية، كالدائرة والمثلث والمربّع، وشعر الطرد والعكس، الذى «يكون طرده مدحا، وعكسه هجاءً» ومنه:

حلّموا، فما ساء لهم شِيَمٌ سمحوا، فما شحّت لهم مِنَنُ

سلموا، فما زالت لهم قدم رشدوا، فما ضلت لهم سُنَنُ

فصورة الطرد هذه مديح، أما العكس فهجاء:

منن لهم شحّت فما سمحوا شيم لهم ساءت، فما حلموا

سنن لهم ضلت، فما رشدوا قدَم لهم زلت، فما سلمـــوا

وأشعار التبادل والمتواليات، ومنها ما قاله أحد شعراء العصر المملوكى:

لقلبى حبيب، مليح، ظريف بديع، جميل، رشيق، لطيف

فهذا البيت يقرأ بطريقة تبادل مفرداته وتقديمها وتأخيرها على أربعين ألفا وثلاثمائه وعشرين بيتا(*). ولك أن تنظر فى هذه الأشكال الشعرية المتكلفة كتاب «مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى» للدكتور بكرى شيخ أمين. وعلى الرغم من هذا كله فإن دولة الشعر الرفيع ظلت باقية، لم يقو الجهل وقلة الفهم على الإطاحة بها، حيث تغلبت أسباب الخصب على أسباب الجدب، وحيث إن بذور العبقرية والشاعرية بقيت على الأجيال خالدة فى النفوس؛ فإذا كان الشعر فى ظلال المماليك قد ضعف ورك فى بعض جوانبه، فإنه قد قوى وجزل ورقّ فى بعضها الآخر.

(*) ذلك أن أجزاءه ثمانية، يمكن أن ينطق بكل جزء من أجزائه مع الجزء الآخر، فتنتقل كل كلمة ثمانية انتقالات. فالجزءان الأولان «لقلبى حبيب» يتصور منهما صورتان بالتقديم والتأخير. ثم خذ الجزء الثالث «مليح» فيحدث منه مع الأولين ست صور، وهى: لقلبى حبيب مليح، لقلبى مليح حبيب، حبيب لقلبى مليح، حبيب مليح لقلبى، مليح لقلبى حبيب، مليح حبيب لقلبى. ولعلك لاحظت أن له ثلاثة أحوال: تقديم وتأخير وتوسط لكل كلمة، فإذا ضربنا أحواله فى الحالين يكون ستة.

ثم خذ الجزء الرابع، وله أربعة أحوال، فأضربها فى الصور المتقدمة وهى الستة التى قبلها تكون أربعة وعشرين.

ثم خذ الجزء الخامس تجد له خمسة أحوال، فاضربها فى أربعة وعشرين تكون مائة وعشرين.. ثم خذ الجزء السادس تجد له ستة أحوال، فاضربها فى مائة وعشرين تكون سبعمائة وعشرين. ثم خذ الجزء السابع تجد له سبعة أحوال فاضربها فى سبعمائة وعشرين، تكون خمسة آلاف وأربعين.

ثم خذ الجزء الثامن تجد له ثمانية أحوال، فاضربها فى خمسة آلاف وأربعين تكون أربعين ألفا وثلاثمائة وعشرين بيتاً.

ولا شك أنه كلما زادت كلمات البيت زادت المتوالية؛ وواضح أن كل لفظ يجب أن يكون وزنه العروضى كوزن باقى الكلمات.. ومثله قول القائل:

محبّ، صبور، غريب، فقير ∴ وحيد، ضعيف، كتوم، حمول

الحلقة الرابعة عشرة

رائدٌ وأميرٌ في دولة القريض

في العصر المملوكي

الرائد: شهاب الدين العزازي(*)

١ ـ هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبدالملك بن عبدالمنعم العزازي،ولد في قلعة عزاز (شمال حلب) سنة ٦٢٧هـ ـ ١٢٣٩م.

انتقل العزازي إلى مصر فكان تاجراً بزازاً في قيسارية جركس(١) في القاهرة. وقد توفي في القاهرة في ٢٩ من المحرم من سنة ٧١٠ (٢٨ـ٤ـ ١٣١م).

٢ ـ كان شهاب الدين العزازي رجلاً كيساً ظريفاً، وكان شاعراً مكثراً مجيداً، يتعاطى النظم للفكاهة والمذاكرة(٢)، ويجيد التوشيح على

(*) ترجمته: الدرر الكامنة ١/٢٠٥، وحسن المحاضرة ١/٢٧٣، شذرات الذهب ٦/٢١ فوات الوفيات ١/٦١، المنهل الصافي ١/٣٤٠، الأعلام للزركلي ١/١٥٨، وبروكلمان ٢/٨، وزيدان ٣/١٣١، وتاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ ٣/٧٠٢، والأدب في العصر المملوكي للدكتور زغلول سلام ٢/١٧٤.

(١) البزاز = الخزاز: الذي يصنع النسيج من الحرير أو يبيعه. قيسارية: (بفتح القاف وتخفيف الياء = بلا شدة) في الأصل: اسم لعدد من المدن. وكانت «القيسارية» (حتى القرن الماضي) كلمة مألوفة للدلالة على المكان الذي ينسج فيه الحرير.

(٢) المذاكرة = مذاكرة الأنفاس: مباراة الأدباء في استذكار الأشعار.

الأوزان الغريبة من المخمسات والموشحات المختلفة الأنواع. وفنون شعره: البديعيات والمدح والهجاء والمُلَح والألغاز والمذاكرات التى كانت بينه وبين الأدباء والشعراء فى عصره؛ وكان كثير المعارضة لأحمد بن حسن الموصلى، عارض له قصائد وموشحات.

٣ ـ مختارات من شعره:

ـ لشهاب الدين العزازى بديعية يعارض فيها البردة لكعب بن زهير[١]، مطلعها:

دمى بأطلال ذات الخالِ مَطْلولُ، ∴ وجيش صبرى مهزومٍ ومفلول[٢]

وبعد أبيات من الغزل يقول العزازى:

ويا نسيم الصبا كر على أذنــى

حديثهن، فما التكرار مملـــول[٣]

ويا حداة المطايا دون ذى سلم،

عوجوا وشرقى بانات اللّوى قيلوا[٤]

(١) راجع الجزء الأول، ص ٢٨٣.
(٢) دم مطلول: ذهب هدراً (لم يؤخذ بثأر صاحبه ولا أخذت ديته ـ بلا شدة على الياء). مفلول: مقطع، متفرق (بعد الهزيمة).
(٣) الصبا: ريح الشرق (وتكون فى نجد باردة منعشة لأنها تمر فوق جبال إيران ثم تأخذ شيئاً من الرطوبة من خليج البصرة).
(٤) يا أيها الحداة (جمع حاد: سائق) المطايا (جمع مطية = ركوبة: حيوان يمتطيه الناس للانتقال عليه) دون (قبل أن تصلوا إلى) ذى سلم (مكان فى الحجاز)، عوجوا (ميلوا، اعطفوا نحو) شرقى بانات (جمع بانة: نوع من الشجر) اللوى (المنحنى من الرمل الأبيض) ثم قيلو (ناموا بعد الظهر: اقضوا وقتاً ما) ـ أيها الذاهبون إلى الحجاز، اسكنوا فيه.

منازل لأكف الغـــيث توشـية

بها، وللنور توشـيع وتكـليل[١]

كأنما طيب ريـاها ونفحـتها

بطيب ترب رسول الله مجبول:

أوفى النبيين برهاناً ومعجـزة

وخير من جاءه بالوحى جبريل

لـه يـد ولـه بـاع يزينـها

فى السلم طول وفى يوم الوغى طول[٢]

سـل الإلــه به سيفاً لملته؛

وذلك السيف حتى الحشر مسلول[٣]

نمته من هاشم أسد ضراغمة

لها السيوف بيوت والقـنا غـيل[٤]

---

(١) توشية: تطريز، ترقيش بالألوان. النور (بفتح النون): الزهر الأبيض. توشيع الثوب: إعلامه (تطريزه بصور مختلفة). والوشوع: النبات المتفرق فى الجبل، الخ. التكليل: صنع الأكاليل.

(٢) الطول (بفتح الطاء): الفضل، الكرم. الطول (بضم الطاء): الامتداد (كناية عن وصول اليد بالسيف إلى العدو).

(٣) وذلك السيف حتى الحشر (يوم القيامة) مسلول: سيبقى (الإسلام) منتصراً إلى الأبد.

(٤) نمته: رفعته (فى النسب وفى التربية) من (بنى) هاشم. أسد ضراغمة (جمع ضرغامة: الشجاع والفحل والرجل الشديد). القنا: الرماح. الغيل (بكسر الغين): الشجر الكثير الملتف. ـ السيوف بيوت لهم (هم شجعان يحمون أنفسهم بالسيوف ـ بالحرب، بالقوة) ورماحهم كثيرة (كأشجار الغابة) كناية عن كثرة الرجال القادرين على حمل السلاح.

إذا تفاخر أرباب العلا فهـم الـ

غر المغاوير والصيد البهاليـل(١)

لهم على العرب العربـاء قاطبـة

به افتخـار وترجيـح وتفضيـل

قوم عمائمهم ذلـت لعزتـها الـ

قعساء تيجان كسرى والأكاليل(٢)!

- ولشهاب الدين العزازى أبياتٌ رقيقة فى الغزل، قيل ادعاها سبعون شاعراً؛ منها:

صاح فى العاشقين: يا لكنانة! ∴ رشأ فى الجفون منه كنانة(٣)

بدوى بدت طـلائع لحـ ∴ ـظيه فكانت فـتاكة فـتانـه(٤)

---

(١) الغر جمع أغر: أبيض (ذو مكانة وجاه ومجد وعفاف) - المغاوير جمع مغوار: الكثير الغارات (الشجاع الجرىء على العدو). الصيد جمع أصيد: المائل العنق (كناية عن الإعجاب بالنفس مع الثقة بالقدرة على الأمور). البهاليل: جمع بهلول (بضم الباء): السيد الجامع لكل خير.

(٢) العمائم جمع عمامة (بكسر العين): نسيج يلف على الرأس (كناية عن البداوة وقلة الوسائل المادية) غلبت ملوك الفرس (ذوى التيجان) وملوك اليمن (ذوى الأكاليل).

(٣) كنانة: قبيلة عربية؛ جعبة (بفتح العين: وعاء) صغيرة توضع فيها السهام. يا لكنانة: يا بنى كنانة (أدركونى وخلصونى من هوى هذا المحبوب). فى الجفون منه كنانة: كأن عينيه فرسان ترميان العشاق بسهام كثيرة.

(٤) بدوى وبدوى (بسكون الدال): نسبة إلى البداوة (ضد الحضر)؛ وبدوى (بفتح الدال) نادرة فى الاستعمال (أقل فصاحة). الطلائع جمع طليعة: أول الجيش - يشبه عيون المحبوب وكأنها جيش (يفتك بالعشاق).

رد منا القلـــــوب منكـسرات ∴ عندمـــا راح كاســرا أجفـــانه

وغـــزانا بـــقامة وبـعيـــن، ∴ تلك سيـــافة وذى طعـــانه(١)

وأرانـــا - وقد تبسم - برقـــا، ∴ فأرينــاه ديمـــة هتـــانـة(٢)

فهو يقضى على النفوس ولم تقـ ∴ ض من الوصـل فى هواه لبانه(٣)

سافر الوجه عن محاسن بـدر، ∴ مائس القَـدّ عـن معاطف بانه(٤)

لست أدرى: أراكه هز من أعـ ∴ طافه الهيف أو لوى خيزرانه(٥)!

خطرات النسيم تجرح خديـــ ∴ ـه، ولمس الحرير يدمى بنانـه!

قال لى، والدلال يعطف منه ... قامة كالقضيب ذات ليانـــه(٦):

---

(١) القامة: القد. تلك (القامة) سيافة (تضرب بالسيف - لشبه القامة فى استقامتها وتمايلها بالسيف) وذى = هذى= هذه (العين) طعانة (برمح - كأن فى عينيه رمحين يطعنان العشاق).

(٢) - لما ابتسم لمعت أسنانه كأنها برق، فجرت دموعنا كأنها ديمة (سحابة ممطرة) هتانة (كثيرة هطول المطر) ... حزناً حزناً شديداً إذ لم نتمكن من وصاله.

(٣) يقضى على النفس: يقتل النفوس (نفوس العاشقين). لم تقض (لم تنل) فى هواه (فى حبه) لبانة (حاجة) = لم تنل رغبتها منه.

(٤) سافر الوجه (كاشف الوجه، يظهر بوجهه) ... مائس القد، متأود، متمايل. القد: القامة. معاطف = أطراف = أغصان. بانة شجرة (شجر أغصانه مستقيمة لينة تتثنى وتتمايل بسهولة فى الريح).

(٥) الأراكة: شجرة حجازية تتخذ منها المساويك. الهيف جمع أهيف (دقيق، نحيف، نحيل). الخيرزانة: نوع من القصب الأصم (الصامد، المملوء القلب) ينحنى بسهولة ولا ينكسر.

(٦) الليان (بفتح اللام): لين العيش ورخاؤه. وليانة صيغة ليست فى القاموس، والشاعر يقصد بها اللين، التثنى.

هل عرفت الهوى؟ فقلت: وهل أنكر دعواه؟ قال: فاحمل هوانه!

موشحاته:

وهى الفن الذى أبدع فيه أكثر من غيره من معاصريه من المصريين. قال ابن تغرى بردى: «وهو صاحب الموشحات الظريفة المشهورة»: واختار له منها مجموعة فى المنهل الصافى[١] كما اختار الصفدى مجموعة فى توشيع التوشيح[٢].

وتجرى موشحاته على صور مختلفة البناء والصياغة، بعضها يجارى النسق المشهور للموشحات الأندلسية، والبعض الآخر يتصرف فيه بعض التصرف، وإن تمثل بالأصول من قفل، وغصن وخرجة. ومزج أحياناً كبعض الوشاحين المصريين والشوام بين صياغة الموشح و«الدوبيت»، فنظم الموشحات الدوبيتية، كقوله[٣].

من لى بسقيم الجفن واهى الخصر   يرنو بعيون كحلت بالسحر

كم أوضح لى عذاره من عذر   ما مال به الدلال ميل السكر

إلا سجدت لمعاطف الغزلان

فى مرشفيه موارد للقبل   تحمى بفاتك لحظه والكحل

---

(١) النجوم الزاهرة ٩/٢١٤.

(٢) طبع فى بيروت ضمن المكتبة الأندلسية بتحقيق " ير حبيب مطلق وطبع دار الثقافة سنة ١٩٦٦.

(٣) توشيع التوشيح للصفدى.

كم قلت لن أكثر فيه عذلى   ما دام اسوداد طرفه لم ينجل

فلا تطمع يا عذول فى سلوانى

ومن موشحاته الأندلسية الروح والطابع قوله:

يا ليلة الوصل وكأس العقار، دون استتار، علمتمانى كيف خلع العذار

اغتنم اللـــذات قبـل الـذهاب

وجـر أذيـال الصـبا والشبـاب

واشرب فقد طابت كؤوس الشراب

ويستمر الموشح على هذا النمط حتى ينتهى إلى الخرجة فى المطلع الأخير فيقول:

بمقلة أفتك من ذى الفقار، ذات احورار، منصورة الأجفان بالانكسار

زار وقد حل عقود الجفـا

وافتر عن ثغر الرضا والوفا

فقلت والوقت النا قد صفا:

يا ليلة أنعم فيها وزار، شمس النهار، حبيبته من دون الليالى القصار

والعزازى بهذه الموشحة يعارض موشحة أحمد بن حسن الموصلى ـ شهاب الدين ـ.

ومن موشح آخر جدد معانى السابقين فى الغزل، وعرضها عرضاً مولداً فقال:

ما سلت الأعين الفواتر ... كم غمد أجفانها الصفاح
إلا اسـألت دم المحاجر ... ممن غير حرب ولا كفاح
بالله ما حرك السواكن ... غير الظباء الجآذر
لما أستجابت لكل طاعن ... من القد والنواضر
وفوقت أسهم الكنائن ... من كل جفن وناظر
عرب إذا صحن يالعامر ... بين السرايا الملاح
طلت علينا من المحجر ... طلائع تحمل السلاح
أحبب بما تطلع الجيوب ... منها وما تبدى الكللّ
من أقمر ما لها مغيب ... غير الظباء الجآذر
هيهات أن تعدل القلوب ... عنها ولو جارت المقل

الأمير: جمال الدين بن نباتة المصري[1] : ٦٨٦هـ - ٧٦٨هـ

أمير الشعراء في عصره. وحامل لوائهم بشعره. الفحل الجزل. المبدع المتفنن. فخر مصر والنيل. أنصفهما بأدبه فلم ينصفاه في ماله

(١) تجد ترجمته ف يالدرر الكامنة جـ٣ (راجع جورجي زيدان جـ٣ ص ١٢٢). وله ترجمة ممتعة فالمفصل جـ٢ ص٢٠٦. كما ترجم له ترجمة وافية الدكتور محمود رزق سليم في كتابه «الأدب العربي من عهد الفاطميين إلى اليوم ١١٣ : ١١٩ والدكتور محمد زغلول سلام في كتابه «الأدب العربي في العصر المملوكي» جـ٢ ٢٢١ : ٢٢٣ والدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي في كتابه «الحياة الأدبية في مصر» ١٥١ : ١٨٠ والدكتور جودت الركابي في كتابه «الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار» ١٨٥ : ١٩٣ وغيرهم.

ونشبه. ووجد عليه الزمان حتى أبأسه. فوجد على الزمان حتى أشجاه.
وهو بعد العالم الفقيه والكاتب المؤلف.

اسمه:

هو جمال الدين محمد بن محمد وينتهى نسبه إلى عبدالرحيم بن نباتة، الذى كان خطيباً لسيف الدولة بن حمدان، وتوفى سنة ٣٧٤هـ. أما والده فشمس الدين بن نباتة، وكان عالماً محدثاً تولى دار الحديث بدمشق، وولد بمصر سنة ٦٦٦هـ وتوفى سنة ٧٣٠هـ.

فبيت ابن نباتة بيت علم وأدب وفقه منذ زمن بعيد. فلا غرابة أنْ شب ابن نباتة الشاعر ميالاً إلى الأدب، راغباً فى العلم، ولقد صدق حيث يقول:

ورثت اللفظ عن سلفى وأكرم ∴ بآل نباتة الغر السّراة

فلا عجب للفظى حين يحلو ∴ فهذا القطر من ذاك النّبات

حياته:

لكأنما نشأ ابن نباتة ولا يزال فى دار أبيه بقية من الفضل والثراء، أخذ يرتع فى بحبوحتها غير آبه لما ينتظره فى مستقبله من شظف عيش - كان لأبيه سكن بدمشق، ودار بزقاق القناديل بفسطاط مصر، حيث ولد ابن نباتة الشاعر سنة ٦٨٦هـ. وزقاق القناديل إذ ذاك كان حياً لأهل الجاه واليسار - فاعتمد الشاعر على مال أبيه. ولما كانت فيه نزعة إلى الأدب وميل إلى العلم موروثان، وكانت مصر والشام تموجان بمن فيهما من علماء وكتاب وشعراء، والحركة العلمية ممتدة فى الآفاق والمدارس واسعة

الرِّواق، أدلى بدلوه فى الدلاء وقارب تلك المناهل واغترف منها. وحسبك أن تعلم أن من علماء ذلك العصر: تقى الدين السبكى. وابن العطار. وابن هشام. وابن منظور. ومن كتاب الدواوين: شهاب الدين بن فضل الله العمرى وأخويه. وعلاء الدين بن الأثير. والشعراء: صفى الدين الحلى. صلاح الدين الصفدى. وابن الوردى. والقيراطى. ففى هذه البيئة الصالحة نشأ ابن نباتة. ونما ذَهنه وثقف عقله. وكان أكثر رغبة فى الأدب والشعر، وكأنى به وقد أحس من نفسه القدرة على قول الشعر، وإجادته فى سن مبكرة، قد أبى إلا أن يهب حياته كلها لهذا الفن، يحيى دولته، ويغرد بأبياته على غصون حياته. وكأنه أقسم على نفسه أن يكون شاعر زمانه غير مدافع، وكأنما كان يرجو من وراء ذلك أن يعيش عيشة مترفة ناعمة، يملأ الدل بُرْدَيْه ويسحب الذيل تيهاً وعجباً. وتلك ـ لعمرى ـ أحلام شاعر! فإن جنة الشعراء قد أغلقت منذ زمن بعيد ـ ولم تعد بلابلهم تجد الأفنان التى كانت عليها تتغنى. والأدواح التى كانت من فوقها تترنم. والأسماع التى كانت ترهف لتغنيها، وتنصت لترنمها، والدهر حال بعد حال.

ولا أدرى لم يُقَدر ابن نباتة كل هذا، ولم يحتط لمستقبله؟ أهو الشعر جنى عليه شيطانه؛ وطوع له سلطانه؟ والشعر ـ وربك ـ لمعة من خيال! يملأ نفس الشاعر تيهاً وعزة وثقة وأملاً! حتى إذا ما امتدت يده لتقطف أزاهيره هزت رياح الأسى والهم أغصانه.

أنف ابن نباتة من أن يحترف كما احترف سواه من الشعراء. وأن يكسب قوته من عرق جبينه، وكيف يكون هذا وهو الذى يقول فى إحدى مدائحه لعلاء الدين بن فضل الله العمرى:

خذها منظمة الأسلاك معـــجزة .·. بالجوهر الفرد فيها كل نظام

مصرية من بيوت الفضل ماعرفت .·. فيها بنـــسبة جزار وحمّامى

لذلك قصر عمله على شعره، فاضطر إلى أن يتكسب به، ويسعى إلى أبواب الملوك والرؤساء بمدائحه. وهو وإن أفاد بعض الجدوى من تكسبه، لم يكن فيما أفاد ما يرغد عيشه، وينعم باله، ويكفيه همّ نفسه، وأسرته. ولعله كان فى شبابه متلافاً، يفهو إلى ملذات الشباب، لذلك بدأت الحاجة تأزمه، والضيق يعرف سبيله إليه، وقد رماه الدهر إذ ذاك بثلاث ضربات قوية، يهِى لها عزم الشجاع، هى ضيق ميدان العمل، وكثرة الأبناء، والشيب العاجل، فكانت هذه الضربات سبباً فى ابتئاسه، وشكواه. واستخدم فى ديوان الإنشاء بمصر، ولكنه ضاق ذرعاً به. فنفر من مصر إلى الشام سنة ٧١٥هـ حيث اتصل بالملك المؤيد صاحب حماة، ثم ابنه الأفضل، ثم المنصور ولد الأفضل. ورتبوا له ستمائة درهم فى السنة، وكان شاعرهم المقدم. فمدحهم بمدائح خلدت ذكرهم أبد الدهر. ثم اتصل بشهاب الدين بن فضل الله العمرى. صاحب ديوان الإنشاء بدمشق، وبأخيه علاء الدين، فاستخدماه فى الديوان، ومدحهما بقصائد طنانة. وفى هذه الفترة التى أقامها بالشام أكثر من القول فى الأغراض

الآتية: المدح، الحنين، الشكوى، الوصف، ويبدو لنا أن هذا الرجل كان قلق الخاطر، غير مستقر النفس، تملؤه الآمال، ولكن لم تواته الأيام، ولم تسعفه الدنيا، فعاوده وهو فى الشام ضيقه وكدره، فهمّ بالعودة إلى مصر وهو يقول لعلاء الدين بن فضل الله العمرى:

وربّ شائمة عـزمى ومـتحلى ∴ إلى حمى مصر أشكو جـفوة الشام

قالت: وراءك أطفال فقلت لها: ∴ نعم، ونعمى ابن فضل الله قدامى

ثم عاد إلى مصر، وكانت له صلاتُ ودْ بكثير من علمائها وأدبائها، ولذلك كان له فيهم كثير من الشعر، فى باب التهنئة أو المناقضة لإظهار شوق أو عتب، أو الرثاء لمن مات منهم. ولكن لم ترفعه هذه الصلات إلى عمل مستقر دائم، ينال من ورائه ما يطمع فيه من طيب الحياة. ولذلك استمرت شكواه، وندب حظه. ثم عطف عليه السلطان الناصر حسن فى أخريات حياته، فاستكتبه ديوان شعره، واستخدمه فى ديوان الإنشاء بمصر، فكان لذلك رنة فرح عند الشاعر، وأشاعت بعض البهجة فى قلبه الحزين ومدح هذا السلطان بقصائد باقية بقاء الدهر، ولعله السلطان الوحيد من بين سلاطين مصر الذى حظى بمدح ابن نباتة، وقد قال له:

يأيها الناصر السلطان لا غمضت ∴ عين لها عن سنا مرآك سلوان

كم فى ملوك الورى فضل ومعرفة ∴ كانوا ومثلك فى ذا النحو ماكوا

إن يمضِ عمرى فكم إيوان معدلة .·. لديك قد زانه يُمن وإيمـــــان
أمَّــرْت شعرى يا خير الملوك على .·. أشعار قوم فلى أمـــر وديـــوان

ومع كل ما لاقاه ابن نباتة من ضروب الغير، تنزلها بساحته الأيام، لم يفارقه افتخاره بنسبه وشعره. كأنما يوهم نفسه بمجد يعوضها عن مجدها الذى كان يرجوه ولم يبلغه. ومع ذلك ظلت شكواه من الدهر. وتألمه لغابر أيامه حيث الشباب النضر واللذة الوفر. وتفجعه لما حل برأسه من شيب عاجل، حرمه كثيراً من لذاذاته. وندبه حظه وحظ الشعراء والأدباء معاً. نقول ظلت هذه الأمور طابعاً طبع شعره عليه. يرددها فى كل موقف، وفى كل قصيدة تقريباً.

اعترى ابن نباتة المرض، فحمل إلى «البيمارستان» المنصورى، ثم توفى فيه فى صفر سنة ٧٦٨هـ.

ـ لابن نباتة ديوان شعر مطبوع، وله عدة مصنفات، منها: «سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون» وكتاب «مطلع الفوائد ومجمع الفرائد» و«الفاضل من إنشاء الفاضل» و«فرائد السلوك من مصائد الملوك» وهى أرجوزة تاريخية.

ووضع الدكتور عمر موسى باشا كتاباً وافياً عن ابن نباتة بعنوان «ابن نباتة المصرى، أمير شعراء المشرق» نشرته دار المعارف بمصر فى طبعته الثانية سنة ١٩٧٢. وهو يعدّ بحق أمير شعراء عصره، لا يدانيه

فى حلبته إلا صفى الدين الحلى. وكثيراً ما كانت بينهما المراسلات الشعرية والمناقضات.

ـ سار ابن نباتة على طريقة المصريين عامة فى الشعر والكتابة، وإمامهم القاضى الفاضل، وذكر أنه حمل لواء الطريقة الفاضلية فى عصره. قال ابن تغرى بردى «وهو أحد من حذا حذو القاضى الفاضل وسلك طريقه، وأجاد فيما سلك». وربما أخذ هذه الطريقة عن شيخه فى الكتابة والترسل محيى الدين بن عبدالظاهر. الذى كان تلميذاً مخلصاً لطريقة القاضى الفاضل وفنه. وقد تمثل ولع ابن نباتة بالقاضى الفاضل فى تتبعه رسائله واختياره منها مجموعاً سماه «الفاضل من إنشاء القاضى الفاضل».

وأضاف إلى تأثره بأسلوب الفاضل فى الكتابة معرفة واسعة بالآداب العربية القديمة والمعاصرة، وبدا ذلك واضحاً فى شرحه لرسالة ابن زيدون التى سماها «سرح العيون».

أما مذهبه فى الشعر فقد امتزج فيه الطابع المصرى الذى ساد شعر المصريين منذ البهاء زهير بالطابع القديم، ويجمع فى أسلوبه بين السهولة والميل إلى ضروب البديع، وخاصة التورية والجناس والتشبيه والاستعارة والاقتباس والتضمين بمعانى القدماء، ولكن دون تكلف يثقل على الذوق.

واعتبره معاصروه أمير الشعر وحامل لواء الشعر. قال الذهبى: «صاحب النظم البديع وشعره الذروة». وقال ابن كثير: «كان حامل لواء الشعر فى زمانه». وقال ابن إياس: «وكان من فحول المولدين. وله شعر جيد فاق به على من تقدمه من الشعراء». وقال ابن تغرى بردى: «وفاق أهل زمانه فى نظم القريض، وله الشعر الرائق». وقال السبكى: «ومن أراد من أهل هذه المائة ـ الثامنة ـ أن يلحق بابن نباتة فى نظم أو نثر أو خط فقد أراد المحال، وحاول ما لا يصير بحال».

وتتلمذ عليه فى الأدب جماعة من كبار شعراء القرن الثامن وأدبائه، حذوا حذوه وساروا على طريقته. قال ابن حجة الحموى: «والعصابة التى مشت تحت العلم النباتى، ونهلت من قطر نباته، هم الشيخ صلاح الدين الصفدى، والشيخ زين الدين عمر بن الوردى، والشيخ برهان الدين القيراطى، ومذهبه أقرب الناس إلى الشيخ جمال الدين نظماً ونثراً، والشيخ شمس الدين بن الصائغ، والشيخ بدر الدين بن الصاحب، والشيخ شهاب الدين بن حجلة والشيخ إبراهيم المعمار، والشيخ بدر الدين حسن الزغارى، والشيخ يحيى الخباز الحموى، والشيخ شهاب الدين الحاجب».

ويقول: «وممن أدركهم المصنف ـ ابن حجة ـ وعاصرهم وكتبوا إليه وكتب [illegible] وأنشدوه وأنشدهم من أهل مصر والشام، والشيخ زين

الدين بن العجمى عين كتاب الإنشاء الشريف بالديار المصرية والقاضى فتح الدين بن الشهيد صاحب دواوين الإنشاء بدمشق المحروسة وناظم السيرة النبوية نَوّرَ الله ضريحه، والشيخ عز الدين الموصلى، والشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقى والشيخ جلال الدين بن خطيب دارياً، والشيخ شمس الدين الرئيس الشهير بابن المزين، والصاحب فخر الدين بن مكانس، وولده الجناب المخدومى المجدى، والشيخ شهاب الدين العطار، والفرقة التى أطال الله بقاءها، وأمست قواعد الأدب بها قائمة وختمت بهم هذه الطريقة البديعة وهم: القاضى بدر الدين الدماميني المالكى المخزومى، والشيخ الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلانى الشافعى، والشيخ بدر الدين البشتكى».

وكان صلاح الدين الصفدى من أقرب أدباء العصر لابن نباتة، ومن أكثرهم تأثراً بطريقته واعتماداً عليه فى نظمه ونثره حتى اشتهر ذلك بين معاصريه، وتعقبه ابن حجة فى أكثر من كتاب كتبه. وقال ابن إياس: «ومما وقع للشيخ جمال الدين هذا أنه كان يخترع المعنى الغريب فى شعره الذى لم يسبق إليه، فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدى، ويأخذه منه وزناً وقافية، وينسبه إلى نفسه»[١].

---

(١) تاريخ ابن إياس ٢٢٣.

نثره وكتابته:

لم يكن ابن نباتة من كتاب الرسائل الديوانية، وإن تولى بعض مناصب الإنشاء، لكن كانت له رسائل فى موضوعات أدبية وإخوانية. من أمثلتها قوله فى تولى الشباب:

«أى والله تولى الشباب، وخمد آب الذهن اللهاب، وخلا الفكر الحائم من صوب، والفهم الخارم من صواب، وأقصر من نظمه ونثره من كانت له فى الإنشاء نضأة، وكانت له فى الشعر أسباب، وغض بصر القريحة وتقلص ذيلها، فما يرفع لها ولا تَجرُ أهداب، واختبا لسان المنشىء والمنشد عجزاً، وأغلق له من شفتيه مصراعى الباب»(١).

وشارك فى الحديث عن وقائع العصر العسكرية، فوصف حصاراً بالنار قال:

«فما كان إلا ريثما ابتسمت له النار على الموت العابس، وعاملتها من أعمال وقودها باليابس، وجاءت بما يفضح ملابس الجلود وجلود الملابس، وأصلتهم ناراً بنت بها أيدى الأبراج حمالة الحطب، وإذا بأبدان البنات القائمة قد قعدت، والأبراج لتلاوة الحرب قد سجدت، فهنالك هجمها المسلمون هجوم الليث الكرار، وقطعت ألسنة السيوف المجادلة حجج رقاب الكفار».

---

(١) ماطلع البدور للغزولى ٢/٢١.

ونثره يشبه نثر معاصريه، يكثر فيه من صنعة البديع، وخاصة التورية والجناس، والطباق والمقابلة، وحسن التعليل، والاقتباس من القرآن الكريم ومأثور الكلام شعراً ونثراً، وهو فى مستواه العام أقل درجة من شعره. وأقل إشراقاً من كتابة غيره من الكتاب النابهين فى هذا الفن، ممن مرّ ذكرهم كالشهاب محمود، ومحيى الدين بن عبدالظاهر.

شـعـره:

ويعد جمال الدين شاعراً ولا يعد كاتباً، فديوان شعره كبير، قال عنه الشوكانى «كله غرر» واعتبره أشعر المتأخرين على الإطلاق، لاسيما فى الغزليات.

نماذج من شعر ابن نباتة:

قال من قصيدة يمدح بها الملك المؤيد:

١ ـ لولا معانى السحر من لحظاتها ∴ ما طال ترداى على أبياتها

٢ ـ لما وقفت على الديار منادياً ∴ قلبى المتيم من ورَا حُجراتها

٣ ـ دار عرفت الوجد منذ أتيتها ∴ زمنَ الوصال فليتنى لم آتها!

٤ ـ حيث الظِّبا وكواعبٌ وحدائق ∴ أنى التفتُّ رتعتَ فى جنَّاتها

٥ ـ والرَّاحُ هاديةُ السرور إلى الحشا ∴ مثلَ الكواكب فى أكُفِّ سُقاتها

---

(٢) يشير إلى الآية الكريمة ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾.

(٤) الكواعب: جمع كاعب، وهى الفتاة الناهد.

٦- فلئن بكيتُ فإنَّ هذا الدمع من .·. ذاك الحبَاب يفيض من جنباتها

٧- ما لى وما لِلْهو بعدَ مــفَارِق .·. قد نُفـَّرت غربانُها ببــُزاتها؟

٨ - والشيبُ فى فَوْدِى يخطُّ أهلة .·. معنى المنون يلوح فى نوناتها

٩- سَقْياً لروضات الشباب وإن جنت .·. هذى الشجون على قلوب جناتها

١٠ - ولدولة الملك المؤيد إنـها .·. جمعت فنون المدح بعد شتاتها

ومن مقطوعات ابن نباتة الرقيقة فى الغزل قوله:

١- رقَّت لنا حين همَّ السَّفْرُ بالسَّفَر

وأقبلت فى الدجى تسعى على حذر

٢- راضَ الهوى قلبهَا القاسى فجادَلنا

وكان أبخل من تـــمُّوزَ بالمطـــر

٣ - رأت غداة النَّـوَى نارَ الكليم وقد

شبَّتْ فلم تـُبقِ من قلبــى ولم تــذَر

٤ - رشيقةٌ لو تراها عندما سفَرَتْ

والبــدرُ ســاهٍ إليهـــا سَهْوَ مُعْتــذر

---

(٦) حباب: الماء: نفاخاته التى تعلوه.

(٧) مفارق: مفرده مفرق كمجلس، وهو وسط الرأس الذى يفرق فيه الشعر.

البزاة: مفردها بارز، وهو نوع من الصقور.

يقصدُ بالغربان سودا الشعر، والبزاة بياضه.

(٨) الفود: معظم شعر اللمة مما يلى الأذنين.

(٩) جنى عليه: أذنب ذنباً يؤاخذ به. الجناة: مفردها جان وجانى الثمرة مجتنيها.

٥ - رأيت بدرين من وجه ومن قمر

في ظل صبحين من ليـل ومن شعر

٦ - رشفـت درّ الحميا من مقبلها

إذ نبهتني إليـها نسمة السحـر

٧ - رنت نجوم الدجى نحو فما نظرت

من يرشف الراح قبلي من فم القمـر

٨ - راق العتاب وأبدت لي سرائـر

في ليلة الوصل بل في غرة القمر

ومجال الحديث عن شعر ابن نباتة عريض متنوع، وليست مدائحه النبوية بأقل جودة من مدائح مشهوري المداحين، وهي تجري مجراها في الروح والمعاني.

وهكذا يبدو ابن نباتة في هذا العصر ومضة حفظت على الشعر رمقه بين غثاء كثير، فقد حافظ على لمسات من الشاعرية، وبراعة التعبير، جعلته جديراً بما أتيح له من الشهرة والتقدير.

الحلقة الخامسة عشرة
شعاع على الأدب
فى العصر العثمانى

عرفت الخلافة العثمانية المجد العسكرى والسلطة الواسعة، التى سال لها لعاب الأوروبيين بعد، فتآمروا لابتلاع هذه الخلافة المتداعية والقضاء عليها. وفى ظلال العثمانيين تقهقرت الحياة تقهقراً مروعاً، حيث عُطِّلت أكثر المدارس عن أداء دورها.

بيد أن الأزهر بقيت فيه أثارة ترسل شعاعاً خافتاً وومضاً متقطعاً؛ فقلَّ لذلك نتاج العلماء، وأضحى عملهم بلا قيمة جدية، إذ اقتصروا على شرح المختصرات وإيجاز المطولات، فكثرت فيها الرموز والإشارات، وعميت المسالك على طلاب العلم، وقل التحرى فشاعت الروايات غير المأثورة والمبالغات الشديدة، والخطأ فى الشعر، وفى نسبته إلى قائليه؛ وضعف أسلوب التأليف ورك، وكثرت فيه العامية، وبخاصة فى كتب التاريخ، كتاريخ الجبرتى، وشاعت الخرافات، وزاد التبجح بالفحشاء، فلو نظرت فى كتاب «أخبار الدول للإسحاقى» لهالتك عبارات بذيئة وألفاظ جريئة.

غير أن هذه الحال لم تمنع من ظهور قوم بين المؤلفين كانوا حسنة في دهرهم، من أبرزه: «ابن إياس ٩٣٠هـ» صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور و«طاش كبرى زاده ٩٦٨هـ» صاحب مفتاح السعادة، الذى أحصى فيه علوم العربية.

و«المقرى المغربى ١٠٤١هـ» صاحب «نفح الطيب» و«يوسف البديعى ١٠٧٣هـ» صاحب المؤلفات الكثيرة، التى من أبرزها: «الصبح المنبى عن حيثية المتنبى» و«هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام» و«عبدالقادر البغدادى ١٠٩٣هـ» صاحب «خزانة الأدب» والخزانة شرح لشواهد الكافية، تتخلله تراجم للشعراء المستشهد بأشعارهم، و«شهاب الدين الخفاجى ١٠٩٦هـ» صاحب آثار كثيرة أبرزها: شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل، وطرز المجالس، وريحانة الألباء، وخبايا الزوايا. و«المحبى ١١١١هـ» وله «خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر» و«نفحة الريحانى» وهو تذييل على ريحانة الألباء للخفاجى.

و«السيد المرتضى الزبيدى ١٢٠٥هـ» صاحب «تاج العروس» وهو شرح للقاموس المحيط. و«الصبان ١٢٠٦هـ» وله حاشية على شرح الأشمونى، ومنظومة فى العروض.

وأما الأدب: فقد ضعف نثره غاية الضعف، حيث عُطِّل ديوان الإنشاء، وخابت آمال الكتاب فى وظائفه، وحلت التركية العثمانية محل اللغة العربية فى المراسيم، ومن ثم تردى الناثرون فى الحضيض،

وتقصفت أقلامـهم، وخمدت أذهانهم، لدرجة أنهم عجزوا عن الإتيان بشىء له قيمة فنية، إذ افتقدوا فى أنفسهم القدرة على التعبير، والتحرز من اللحن، فتعثروا فى الركاكة، وأتوا بالغث السمج، وعجزوا حتى عن البديع واقتناص أنواعه، ووارَوا قصورهم بالتلصّص الأدبى، فما حسُن فى أدبهم فمرده إلى السرقة والاغتصاب من بقايا آثار من سبقوهم من الكاتبين، حتى اضطر بعض النابهين إلى تأليف نماذج إنشائية تمثل الوجدانيات المتنوعة، يرجع إليها من يريد أن يكتب شيئاً من هذه الموضوعات، كالشيخ مرعى المتوفى ١٠٣٠هـ فى كتابه «بديع الإنشاء والصفات فى المكاتبات والمراسلات».

وإليكم نموذجاً من النثر فى العصر العثمانى، مما كتبه عبدالوهاب المحلى إلى شهاب الدين الخفاجى:

«لقد طفحت أفئدة العلماء بشرا، وارتاحت أسرار الكاتبين سراً وجهراً، وأفعمت من المسرة صدور الصدور، وطارت الفضائل بأجنحة السرور بيُمن قدوم من اخضرت رياض بأقدامه، وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه».

فأنت ترى فى هذا المثال لغواً وسخفاً، ففيه أن البحار تغرق، وأن الفضائل تطير، وأن للتحقيق رياضاً خضرتها أقدام الشهاب، وأن لفظتى: طفحت وأفعمت لا تلائمان المقام، ومن ثم فلا مواءمة بين الألفاظ والمعانى.

لا جرم قد هبت على الأدب فى دولة العثمانيين ريح ذات إعصار، فجمدت القرائح، وأخلقت عرى المحامد، وخرج ذوق العصر على الذوق المألوف، وذهبت المعانى ضحية تلك الأساليب الباردة وخطب البلاء على منابر الأطلال، وفقدت الأصالة، وعفا رسم الكرم، وانزوى الأدب الرائع، يجتر آلامه، ويلفظ أنفاسه، لولا بقايا من ذماء الروح كانت تتردد فى جسم الأدب فى فترات متباعدة، تتصاعد أحياناً فى عذوبة ورقة بعض ما كتبه الشهاب الخفاجى، أو فى وضوح وقوة ما كتبه البغدادى؛ وخذ نتفا من رسالة الشهاب إلى صديقه «عبدالوهاب» لتتبين الفرق بين الكاتبين.

يقول الشهاب: «مولاى يشتكي من الدهر وهو أبو العبر، وفى المثل: من سابق الدهر عثر، فانتظر عُقَب الزمان عليك، وَكِل إلى الله أمر من أساء إليك، فإن الدهر دول، ولله جنود منها العسل، وما سميت الحال بالحال إلا لسرعة التحول والانتقال.. فأوقد مصباح فكرك إن أظلم الدجى، واصبر فإن الصبر يفوح منه أرج الرجا، وإن جفت قريش فلله أنصار، وإن نَبَتْ بك دار فلله ديار.... ولله در القائل:

مرضت من الحمقى فلم أدرك المنى ... تمنيت أن أشفى برؤية عاقل...»

وأما الشعر: فقد أخذ يتدلى إلى الحضيض فى عهد العثمانيين، وحال نظماً خالياً من روعة المعانى، قَفْرا من بدائع الصناعة، ولا غرابة فإن الفنون لا تزدهر إلا حيث تطمئن القلوب، وتهدأ النفوس، ويكثر الخير،

وتسهل أسباب الحياة، أرأيت الطائر الغَرِدَ يغنى بين حفيف السهام؟! أرأيت الزهر يبتسم وقد ألوت به العواصف ولفحته السمائم؟! إلى جانب قلة العطاء فى ذلك العصر، وانقطاع صلات الشعراء. لهذا كله انحدر.

والانحدار يتبدى فى مظهرين: فى الشاعر، وفى الشعر.

فالشعر فى زمن العثمانيين ما عاد يأنف من إراقة ماء الوجه والاستجداء الرخيص كما فى قول الشاعر نصر الله الطرابلسى(١):

ولم يبق إلا ماء وجه أرقته ∴ وحسبى بشعرى شاهداً ومترجماً

مما لم يعهد على الشعراء فى العصور الخوالى، صحيح أن منهم من تذلل وتزلف، ولكن مع احتفاظه ببعض حيائه وخجله من التصريح المكشوف، فكان لذلك يؤثر الإشارة على العبارة، والتلميح على التصريح، فلم يُرق ماء وجهه على الأعتاب.

وأما انحدار الشعر، فحدث عن الضعف والإسفاف والركاكة، ولا حرج، فلقد أضحى ألفاظاً ترصف، لا معنى فيها ولا روح، ولا إشراق يمدح رجلاً من آل المرادى(٢):

فكأن الزهور فيها استعارت ∴ عرْف خيّم الهمام، نَجْل المرادى

وكأن الطيور تملى علينا ∴ وصفَ زاكى النّجار سامى العماد

---

(١) انظر: أعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء للشيخ محمد راغب الطباخ جـ٧ ص٢٦٩.

(٢) انظر: مطالعات فى الشر المملوكى والعثمانى د. بكرى شيخ أمين ص٩٦ ومابعدها.

فالشاعر نظر إلى الزهور والطيور، فلم يسعفه الخيال الشعرى لكى يرى فيها صورة غير صورة الممدوح، ذى الأرج الفواح كالزهور، وغير الصفات التى لا يفتأ الطير يصدح بها، فالشاعر أعجز من أن يسمو بخياله إلى الدرجة المتواضعة، التى يجعل فى ثناياها مآثر ممدوحه وشمائله تضوع عطراً، وتفوح شذى، كما يضوع عبق الورد، فيملأ الآفاق شذى وطيباً.

ولا عجبِ! لهذا العى والفطور والكلال يفسره قول الشاعر قديماً:

قالوا: تركت الشعر قلتُ: ضرورة

باب الدواعى والدوافــع مغلــق

خلَـت الـديار فلا كريم يرتجى

منه النـوال، ولا مليـح يعشـق

الحلقة السادسة عشرة

أبرز فنون الشعر وأشهر الشعراء فى العصر العثمانى

عَرَفَ الشعرُ فى العصر العثمانى فنوناً شعرية مستحدثة تجنح فى معظمها إلى الأشكال الهندسية، ويتجلى فيها أثر العقل لا أثر العاطفة كفن: التأريخ الشعرى: وهو فن ينهض على حساب الجُمَّل، بدل الأرقام، فنراهم يُرَكِّبون حروف الجمل تركيبا له معناه اللغوى، إلى جانب دلالته التأريخية الحسابية، ويعتمد على الترتيب الأبجدى لحروف الهجاء، ويتخذونها للأرقام الحسابية، ومنها أفراد، وهى: «أبجد هوز حطى» ومنها عقود، وهى: «كلمن سعفص» ومنها مئات، وهى: «قرشت» و«ثخذ ضظغ» غير أن الغين فى «ضظغ» بألفٍ؛ وهذا جدول بالقيمة العددية لكل حرف لتتم الفائدة:

أ ـ ١ ب ـ ٢ ج ـ ٣ د ـ ٤ هـ ـ ٥ ـ و ـ ٦ ز ـ ٧

ح ـ ٨ ط ـ ٩ ى ـ ١٠ ك ـ ٢٠ ل ـ ٣٠ م ـ ٤٠

ن ـ ٥٠ ـ س ـ ٦٠ ع ـ ٧٠ ف ـ ٨٠ ص ـ ٩٠ ق ـ ١٠٠

ر ـ ٢٠٠ ش ـ ٣٠٠ ت ـ ٤٠٠ ث ـ ٥٠٠ خ ـ ٦٠٠

ذ ـ ٧٠٠ ض ـ ٨٠٠ ظ ـ ٩٠٠ غ ـ ١٠٠٠

وشترطوا فى هذا الفن: ذكر ما يدل على التاريخ كلفظة «أرخ أو أرخوا»، وأن يقع التاريخ فى قسم من عجُز بيت، أو عجُزه، أو فى بيت عى الأكثر، وأن تحسب الحروف على صورتها، دون مراعاة لفظها، فمثلاً الألف فى «فتى» تحسب ياء، ولا يحسب المشدد إلاحرفاً، وتحسب ألف الإطلاق ألفاً، وتاء التأنيث المنقطة تاء (ة) وغير المنقطة هاء (ه) وهلم جراء [1].

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء المسلمين اعتمدوا التاريخ الهجرى أساساً لنظمهم، بينما اعتمد غير المسلمين التاريخ الميلادى.

وأحسن هذا الفن ما كان فيه فائدة تاريخية، كما فى قول إبراهيم ابن المبلط فى جلوس السلطان سليم الثانى – بن سليمان – على تخت الملك سنة ٩٧٤هـ:

يولى مليك العصر وابن مليكه ∴ بعز وتأييد ونصر وسلطان

ودولة ملك قلت فيها مؤرخاً: ∴ «سليم تولى الملك بعد سلميان

وقول محمد بن أحمد بن عبدالله المعروف بماميه الرومى فى جلوس السلطان مراد بن سليم الثانى سنة ٩٨٢هـ:

بالبخت فوق التخت أصبح جالسا ∴ ملك به رحم الإله عباده

---

(١) انظر مطالعات [illegible]

وبه سرير الملك سُرَّ فأرخــوا ∴ «حاز الزمان من السرور مــرداه»

وأرخ الشاعر نفسه لعمارة درويش باشا الوزير أحد جوامه دمشق فى سنة ٩٨٢هـ:

فى دولة السلطان بالعدل مراد ∴ من قام بالفرض وأحيا السنه

درويش باشا قـد أقام معبـدا ∴ وكم لـه أجـر بـه ومنـه

بنـاه خيـر جامـع تاريخـه ∴ «لله فاسجد واقترب بجنة»[1]

وقد أكثر شعراء العصر من هذا الفن، حتى جعلوه فى كل مناسبة صغرت أو كبرت، ثم تفننوا فى تفنناً يسترعى الاهتمام، من ذلك التفنن: أن أحد الشعراء نظم أبياتاً يؤرخ فيها عُرساً جرى بحلب، فجعل مجموع الحروف المهملة فى البيت الأخير توافق تاريخ العرس، وهو سنة (١١٣٠هـ) كما جعل الحروف المعجمة فى البيت ذاته توافق التاريخ نفسه، وأضاف إلى هذه اللعبة والجهد ذكر التاريخ صراحة، وإليك الأبيات:

أيها الكامل يا من أخبرت ∴ عن علاه فئة بعد فئه

خذ تواريخا ثلاث جُمعت ∴ لك فى مفرد بيت منبئه

«عمَّ حولٌ وسرور العرس وهو ثلاثون وألف ومئة».

---

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد جـ٨ ص ٣٩٥ وما بعدها.

أشعر شعراء العصر العثمانى:

كان عدد النابهين من الشعراء فى هذا العصر قليلاً، إذ ما قيس بالعصر المملوكى، يأتى فى مقدمته: الشهاب الخفاجى المصرى (١٠٦٩هـ) ومن شعره قوله:

فديتك يا من بالشجاعه ترتدى ∴ وليس لغير السُمر فى الحرب يغرس

فإن عشق الناس المها وعيونها ∴ من الدَلّ فى روضِ المحاسِنِ تنعس

فدرعك قد ضمتك ضمة عاشق ∴ وصارت جميعاً أعيناً لك تحرُس

وقوله مضمناً:

يا صاحِ إن وافَيتَ روضة نرجس ∴ إيــاك فيها المشىَ فهو محرم

حاكت عيون معذبى بذبولـــها ∴ ولأجل عين ألف عين تكرم

ومحمد بن أحمد بن عبدالله المعروف بماميه الرومى، وهو رومى الأصل، قدم دمشق صغيراً، وصحب الشيخ أبا الفتح المالكى، وعليه تخرج فى الأدب، جمع لنفسه ديواناً وجعل له تاريخ جمعه: «وأتوا البيوت من أبوابها» وذلك سنة إحدى وسبعين وتسعمائة، ولو التواريخ التى لا نظير لها[1] عده أستاذه أبو الفتح إمام الشعر فى وقته فقال ـ على اضطراب فى الوزن ـ:

لا تعجبوا من حسن رونق نظمه ∴ هذا إمام الشعر ابن المرومى

---

(١) انظر: شذرات الذهب جـ٨ ص٤١٢ وما بعدها.

والشاعر عبدالرحمن بن محمد الحسينى المعروف بـ (ابن النقيب) نسبة إلى أبيه الذى كان نقيب الأشراف فى بلاد الشام، والمتوفى سنة ١٠٨١هـ، ويعد ابن النقيب بحق تغريدة جميلة فى عصر خبت فيه جذوة الأصالة، إذ استطاع أن يحافظ على وهجها فى أشعاره، من ذلك قوله يصف الرياض ويفتننّ بالتشابيه:

وكأن الأقداح منها شفاهٌ ∴ أودعتّها مُزتّ الربيع الزلالا

وكأن الشقيق خدٌ لظطيمٌ ∴ كونْت فيه بهجة الحسن خالا

وكأن الأطيار حين تغنّت ∴ غادرتْ بينها الغناءَ سجالا

كأن الأراك منها طَروب ∴ هزّه باعث الغرام فمالا

وكأن الغدير مِقدام جيش ∴ كرّ نحو البيداء يبغى النزالا

وشاعر الرقة واللين والسهولة عبدالله بن شرف الدين الشبراوى - من أكابر مشيخة الأزهر - والمتوفى سنة ١١٧٢هـ، ومن قوله يعتذر إلى بعض مشايخه(١):

إن ظنى والله فيكم جميل ∴ ولسانى عن اعتذارى قصير

سعة الصدر قد دعتنى إلى ما ∴ كان منى والحلم عنكم شهير

ومما قاله مؤرخاً فى رثاء أحمد الدِّلنجاوى:

---

(١) انظر: الأدب العربى من الانحدار إلى الازدهار . د/ جودت الركابى ص ١٩٧ ومابعدها.

سألت الشعر هل لك من صديــق .·. وقد سكــن الدلــنجاوىُ لحده؟

فــصاح وخــرْ مغــشياً عليــــه .·. وأصبح ساكنــاً فى القبر عـــنده

فقلت لمــن أراد الشعر أقْـــصرْ .·. فقــد أرخــتُ «مات الشعر بــعده».

٤٤١ ٦٠١ ٨١

سنة ١١٢٣هـ»

ثبت بالمصادر والمراجع

١ ـ الأحاجى والألغاز الأدبية. عبدالحى كمال.

٢ ـ أدب الدول المتتابعة. د/ عمر موسى باشا.

٣ ـ الأدب العربى من الانحدار إلى الازدهار. د/ جودت الركابى.

٤ ـ الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم. د/ محمود رزق سليم.

٥ ـ الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى. أحمد صادق الجمال.

٦ ـ الأدب فى بلاد الشام. د/ عمر موسى باشا.

٧ ـ الأدب فى العصر المملوكى. د/ محمد زغلول سلام

٨ ـ الأدب فى العصر المملوكى. د/ محمد كامل الفقى.

٩ ـ أدب مصر الفاطمية. د/ محمد كامل حسين.

١٠ ـ الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى. محمد سيد كيلانى.

١١ ـ إغاثة الأمامة بكشف الغمة للمقريزى، نشر الأستاذين: محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيال.

١٢ ـ ألحان السواجع بين البادى والمراجع. لصلاح الدين الصفدى، تحقيق: د/ محمد عبدالحميد سالم.

١٣ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. للشوكانى.

١٤ ـ بدائع البدائة. لابن ظافر الأزدى.

١٥ ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور. لابن إياس.

١٦ ـ البداية والنهاية. لابن كثير.

١٧ ـ تحرير التحبير. لابن أبى الإصبع المصرى. تحقيق: د/حفنى محمد شرف.

١٨ ـ تاريخ آداب العرب. للأستاذ مصطفى صادق الرافعى.

١٩ ـ تاريخ الأدب العربى. للأستاذ أحمد حسن الزيات.

٢٠ ـ تاريخ الأدب العربى. د/ عمر فروخ.

٢١ ـ تاريخ الأدب العربى: كارل بروكلمان.. ترجمة د/ رمضان عبدالتواب، عبدالحليم النجار.

٢٢ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان.. مراجعة د/شوقى ضيف.

٢٣ ـ تاريخ ابن الوردى.. تحقيق.. أحمد رفعت البدراوى.

٢٤ ـ تاريخ الشعر العربى.. د/ محمد عبدالعزيز الكفراوى.

٢٥ ـ ثمرات الأوراق.. لابن حجة الحموى.

٢٦ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل.. شهاب الدين محمود الحلبى.

٢٧ ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة... للسيوطى.

٢٨ ـ حلبة الكميت.. شم الدين النواجى.

٢٩ ـ الحياة الأدبية فى مصر.. العصر المملوكى والعثمانى. د/محمد عبدالمنعم خفاجى.

٣٠ ـ حياة الحيوان الكبرى.. للشيخ كمال الدين الدميرى.

٣١ ـ الحياة الفكرية والأدبية بمصر.. د/ محمد كامل حسين.

٣٢ ـ خبز الشعير.. لابن نباتة.

٣٣ ـ خزانة الأدب.. لابن حجة الحموى.

٣٤ ـ خطط الشام. محمد كرد على.

٣٥ ـ الخطط: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.. للمقريزى.

٣٦ ـ خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر.. المحبى.

٣٧ ـ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة.. لابن حجر العسقلانى.. تحقيق: محمد سيد جاد الحق.

٣٨ ـ ديوان الأبيوردى.

٣٩ ـ ديوان انب نباتة .. جمع: البدر البشتكى.

٤٠ ـ ديوان ابن الوردى.. تحقيق: الدكتور أحمد فوزى الهيب.

٤١ ـ ديوان الشاب الظريف (محمد بن عفيف التلمسانى) تحقيق: شاكر هادى شكر.

٤٢ ـ ديوان الصبابة.. لابن حجلة.

٤٣ ـ ديوان صفى الدين الحلى.. تحقيق كرم البستانى.

٤٤ ـ سرح العيوان فى شرح رسالتى ابن زيدون.. لابن نباتة.

٤٥ ـ الروضتين فى أخبار الدولتين.. لأبى شامة المقدسى.

٤٦ ـ ريحانة الألبا ونزهة الحياة الدنيا.. الشهاب الخفاجى، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو.

٤٧ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك.. للمقريزى.. تحقيق: محمد مصطفى زيادة.

٤٨ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب.. لابن العماد الحنبلى.

٤٩ ـ شعر الجهاد فى الحروب الصليبية.. د/ محمد الهرفى.

٥٠ ـ شعر الخصاصة فى العصر المملوكى.. د/ شفيق عبدالرازق أبو سعدة.

٥١ ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا.. لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى.

٥٢ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد.. كمال الدين الإدفوى.

٥٣ ـ طبقات الشافعية الكبرى.. تاج الدين السبكى.

٥٤ ـ العاطل الحالى والمرخص الغالى.. صفى الدين الحلى.

٥٥ ـ عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى. د/ محمود رزق سليم.

٥٦ ـ الغيث المنسجم فى شرح لمية العجم للصفدى.

٥٧ ـ الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا ـ الزجل) د/ رضا محسن حمود.

٥٨ ـ فوات الوفيات.. لابن شاكر الكتبى، تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحميد.

٥٩ ـ المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول.. د/ فوزى محمد أمين.

٦٠ ـ المدائح النبوية فى الأدب العربى . للدكتور زكى مبارك

٦١ ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار.. شهاب الدين بن فضل الله العمرى.

٦٢ ـ مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى.. د/ بكرى شيخ أمين.

٦٣ ـ المستطرف فى كل فن مستظرف.. للأبشيهى.

٦٤ ـ مطالع البدور فى منازل السرور للغزولى.

٦٥ ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب.. لابن واصل، تحقيق: جمال الدين الشيال.

٦٦ ـ منطق الطير... لابن أبى حجلة.

٦٧ ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى.. ابن تغرى بردى.

٦٨ ـ معيد النعم ومبيد النقم.. لتاج الدين السبكى.. تحقيق: محمد على النجار وآخرين.

٦٩ ـ النجوم الزاهرة ملوك مصر والقاهرة.. ابن تغرى بردى.

٧٠ ـ نسيم الصبا.. لبدر الدين محمد بن حبيب.

٧١ ـ النقد الأدبى فى العصر المملوكى. د/ عبده عبدالعزيز قلقيلة.

٧٢ ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب.. للنويرى.

٧٣ ـ وفيات الأعيان.. لابن خلكان.. تحقيق: د/ حسان عباس.

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة